الباب السادس

النهضة فى شعر الطبيعة

انتهى القرن الثالث الهجرى بغلبة الجديد ، وكان من أهم عناصر الغلبة الشعراء أنفسهم ؛ فقد تميزوا فى ذلك العصر بالنقد والتأليف ، وأصبح الشاعر يجاهر برأيه ، ويحدد أهدافه الشعرية ، وأصبح الشعراء يدعون إلى الجديد وإن اختلفوا فى التفاصيل وكان أبو نواس داعية الجديد الأول ، وأكثر الشعراء تحمساً له .

والنقاد أنفسهم تغير موقفهم ؛ فابن قتيبة دعا إلى تقدير الشعر الحديث ، ونبذ التعصب للقديم ؛ والجاحظ قد حكم فى الشعر ذوق الكتاب المحدثين ، وحمل على أحكام اللغويين ؛ واللغويون أنفسهم لم يجدوا بدًّا أمام هجمات الشعراء من إبداء الإعجاب بالجديد ، كما صنع الأصمعى إذ فضل شعر بشار لتجديده ، وكما صنع الرياشى إذ أبدى إعجابه وفتنته بالبديع ، بل أصبح اللغويون يخشون هجاء الشعراء الأحرار ويصانعونهم ، والويل للغويين إن تعرضوا لهم ؛ إنهم إذاً يوقفونهم على حقيقة أمرهم ، كما أوقف ابن الرومى الأخفش ! .

وكان انقسام الدولة ، وسيادة العناصر الأجنبية ، مما ساعد على التحرر من الماضى العربى الجاهلى . وهكذا لم يأت القرن الرابع إلا والأمر قد استقام للجديد ، مع أصوات تهتف بالقديم . فإذا كان القرن الخامس خفتت هذه الأصوات ، وتلاشت فى أهم مواطن الشعر العربى .

والثعالبى فى القرن الرابع يبين مدى هذه الغلبة حين يؤلف موسوعة من الشعر الحديث ، بعد أن كان أبو تمام والبحترى وغيرهما يؤلفون موسوعاتهم من الشعر القديم ، ويفصح عن جلية الأمر فيقول فى مطلع يتيمته : « . . . كانت أشعار الإسلاميين أرق من أشعار الجاهليين ، وأشعار المحدثين ألطف من أشعار المتقدمين ، وأشعار المولدين أبدع من أشعار المحدثين . وكانت أشعار العصريين أجمع لنوادر المحاسن ، وأنظم للطائف البدائع من أشعار سائر المذكورين ؛ لانتهائها إلى أبعد غايات الحسن ، وبلوغها أقصى نهاية الجودة والظرف ، تكاد تخرج من باب

الإعجاب إلى الإعجاز ، ومن حد الشعر إلى السحر ؛ فكأن الزمان ادّخر لنا من نتائج خواطرهم ، وثمرات قرائحهم ، وأبكار ألفاظهم أتم الألفاظ والمعانى استيفاء لأقسام البراعة ، وأوفرها نصيباً فى كمال الصنعة ورونق الطلاوة . . . »[1]

وهكذا يبالغ فى تفضيل الجديد ، شأن الدعاة له دائماً ؛ إذ يقفون فى النهاية القصوى من عكس موقف خصومهم .

واتصل بهذا ما انتهى إليه الرأى من الاعتماد على اللفظ والنظم فى تقدير الشعر ، حتى قيل إن المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العربى والعجمى ، وحتى أصبح الشعراء لا يبالون الإعلان عما أخذوه من معانى القدماء فألبسوه ثياب المحدثين ، بل يفاخرون به .

وكان الشعر فى الدور السابق ذا وطن واحد ، هو العراق وما اتصل به من الشام والجزيرة ؛ يلتقى الشعراء فى بغداد والبصرة والكوفة ، ولم تكن لهم خصوصيات إلا بقدر ما تقتضيه الشخصية . أما فى هذا الدور فقد تميز الأدب فى البيئات المختلفة . وإذا كنا قد رأينا فى الشعر القديم آثار البيئة واضحة رغم الاتجاه التقليدى فى شعر الدور الثانى ، فإن هذه الآثار أوضح فى هذا العصر .

---

(١) اليتيمة ، ط مصر سنة ١٩٣٤ : ص ٣ .

الفصل الأول

فى الشام

١

ونقصد بالشام ما ينتظم الجزيرة الفراتية كذلك ؛ مما خضع من أقاليم الإمبراطورية العربية لسلطان الحمدانيين . وزعيم هذه الأسرة ، سيف الدولة بن حمدان التغلبى ، قد استطاع أن يحفظ فى هذا القسم سلطان العرب على أنفسهم ، وأن يؤلف من حوله مجتمعاً راقياً ، تتوفر له مقومات الحضارة ، وأن يغلب الروم على أمرهم ، وإن لم يستطع خلفاؤه الاحتفاظ بعمله حين وقعت الشام بين شقى الرحى : الروم فى الشمال ، والفاطميين فى الجنوب .

ولكى نقدر حظ هذه الأسرة الأدبى والثقافى ، ينبغى أن نذكر ما اجتمع حول زعيمها من الشعراء والمؤلفين والفلاسفة والنحاة . فمن الشعراء المتنبى وأبو فراس والنامى والزاهى وأبو الفرج البغاء وأبو إسحاق البغاء وأبو الفرج الوأواء والصنوبرى وكشاجم والسرى الرفاء ومن الخطباء ابن نباتة ، ومن النحاة ابن خالوية ، ومن المؤلفين أبو الفرج الأصبهانى ، ومن الفلاسفة أبو نصر الفارابى الذى تكفل بيت المال بمعاشه . كما يجب أن نذكر من بعدُ الثعالبى والمعرى وغيرهما ، ممن يمثلون الحضارة العربية فى هذه البيئة أصدق تمثيل .

ولا ينبغى أن نلتمس شعر الطبيعة عند المتنبى وأبى فراس والمعرى ؛ فقد كان الأولان شاعرين سياسيين ، يخدمان السياسة ، ويبالغ أولهما فى خدمة مطامعه . أما المعرى فقد انصرف ، مع أخذه بالمدح ، إلى الفكر والتأمل ، وخدمة الشعر عن طريق البراعة النظمية والثقافة اللغوية ؛ وكان هذا طبيعيًّا فى رجل رهين آفته وحبيس بيته .

وإذا عثرنا عند المتنبى بشىء فى الطبيعة فهو بقايا القديم ، ولمحات الحديث . نجد بقايا القديم عنده فى حديث الناقة والليل والرحلة والأطلال والمهمه وقطعه إلى الممدوح والفرس

الذى يركبه إليه ، والشمس والقمر والصيد والبحر والأسد مفضلاً للممدوح عليها [١] . وبعض هذه الأوصاف تعطره نسمات شذية ، لكن ما يتصل بها ، من غرض المدح وتسخير الطبيعة له والقلة ، يجعل خطرها محدوداً فى هذا الباب .

ومن ذلك حديث الأسد الذى يرسم فن المتنبى القائم على التأمل والغموض :

فى وَحدة الرهبان إلا أنه لا يعرف التّحريم والتّحليلا
يطأ الثرى مترفّقاً من تيهه فكأنه آس يجُسُّ عليلا
ويرد عُفرتــه إلى يـافوخـه حتى تصيرَ لرأسه إكليلا
وتظنّــه مما يزجر نفسُه عنها لشدة غيظه مشغولا
قَصَرتْ مخافتُه الخُطى فكأنما ركِب الكمِيُّ جوادَه مشكولا

لكنه قد جعل الأسد ذليلا أمام بدر بن عمار ، متبعاً طريق القدماء ، كما اتبعهم فى بعض المعانى كتلاعبه بمعنى امرئ القيس : «قيد الأوابد» فى البيت الأخير ، وإن ألبس نظمه طرافة وبراعة فائقتين .

وطردياته تصف الصيد فتخدم المدح كذلك ؛ وليس فيها من الفتنة بالطبيعة شىء مذكور . ومثلها أرجوزته التى تصف خروج أبى شجاع للصيد :

ما أجدر الأيام والليالى بأن تقول : ما له وما لى !

فقد قص مسهباً حديث الصيد قصصاً لا يبدو فيه الحب للطبيعة والهيام بموجوداتها ، وإنما تبدو صفات الممدوح ومزاياه [٢] .

أما لمحات الحديث التى تتجلى فى المدح فتظهر حين يصف شعب بوان فى إبداع ، وحين يصف مدّ نهر حلب على دار سيف الدولة ، وحين يصف بحيرة طبرية [٣] فى مدح على التنوخى .

وهذا الأخير يملأ النفس المفتونة بالطبيعة أسى ؛ لأن المتنبى صاحب هذه المواهب الفنية لم يمنح الطبيعة من الحب طرفاً مما منح لطلب الغنى والجاه . قال :

لولاك لم أترك البحيرة والـ غَوْرُ دفىء وماؤها شَبِم

---

(١) التبيان للعكبرى ؛ ط مصر سنة ١٩٣٦ : ج ١ ص ٣٦– ٤١ ، ١٣٠ ، ١٣٩ ، ١٤٧ ، ج ٢ ص ١٣ ، ٢٤٥ ، ٢٨٩ ، ج ٣ ص ١٧٠ ، ١٧٧ ، ٢٠١ ، ٢٣٧– ٢٤٣ ، ٣١١– ٣٢٤ .

(٢) نفس المصدر : ج ٣ ص ٣١١– ٣٢٤ .

(٣) نفس المصدر : ج ٤ ص ٦٦ ، ١٧١ ، ٢٥١ .

والموجُ مثلُ الفحولِ مزبدةً تهدرُ فيها وما بها قَطَمُ
والطيرُ فوق الحَباب تَحْسَبُها فُرسانَ بُلْقٍ تَخُونُها اللجُمُ
كـأنها والرِّياحُ تضربُهـا جَيْشاَ وغىً : هازمٌ ومنهزم
كأنها فى نهارها قمر حَفَّ به من جِنانها ظُلَم
ناعمةُ الجسم لا عظامَ لها لها بناتٌ وما لها رَحِم
يُبقَرُ عنهن بطنها أبداً وما تَشَكَّى ولا يسيل دم
تغنت الطير فى جوانبها وجادت الروضَ حولها الدِّيَمُ
فهى كماويَّـة مطوَّقـة جُرِّدَ عنها غِشاؤها الأَدمُ

والمدح قد شاب الوصف حين استعان فى تصوير البحيرة بمواد الضرب والنزال والهزيمة والنصر وشق البطون وما إليها من الصفات . لكنه قد بان عن معدن الفن الطبيعى الكمين فى جملة الوصف ، وبخاصة فى البيت الأخير ، حين شبه البحيرة هذا التشبيه البديع فجعلها ، بمائها الصافى وبما حولها من الرياض ، كالمرآة ذات الإطار أخرجت من غلافها .

أما أبو فراس الأمير الحمدانى فكان أشد إعزازاً لنفسه ولفنه من المتنبى ؛ ولهذا رأينا له لمحات فى الطبيعة أوفر ، وإن ذهبت فى غمار السياسة .

وصف أبو فراس الماء والروض والزهر . ومن طرائفه فى هذا قوله :

وكأنما البِرك الملاء تحفها ألوانُ ذاك الروض والزهر
بُسُطٌ من الديباج بيض فُروزت أطرافهـــا بفراوز خضر

وقد علق الثعالبى على هذين البيتين بقوله : إنهما «مما يعرب عن استخدام نفائس الفرس [1] » . والشاعر لا ريب يتبع ابن المعتز الذى يعنى بتصوير الشكل .

ونحو هذا مع تأثر بعمله الحربى قوله :

انظر إلى زهر الربيع والماء فى ترك البديع
وإذا الرياح جرت عليـ ـه فى الذهاب وفى الرجوع
نَثَرت على بيض الصفا ئح بيننا حَلَقَ الدروع [2]

وكان يلهو أحياناً بنظم مزدوجات طردية تصف الصيد والطعام والشراب ، ولا تمتُّ إلى

(١) اليتيمة : ج ١ ص ٢٤ .
(٢) اليتيمة ، ط مصر : ص ٤٥ .

شعر الطبيعة بنسب وثيق . وهى تمثل أسلوب العصر قد يبلغ بسهولته درجة الابتذال ، وتدل على أن الشعر أصبح يعالج كل المسائل ، وإن كان بهذا العلاج العارى من ألوان الخيال قد انحط عن مكانة الشعر الرفيع .

ومنها مزدوجته :

ما العمر ما طالت به الدهور العمر ما تم به السرور

وجاء فيها :

دعوت بالصّقّار ذات يوم عند انتباهى سحراً من نومى
قلت له : اختر سبعة كبارا كل نجيب يرد الغبارا
يكون للأرنب منها اثنان وخمسة تفرد للغزلان

على أنه لم يكن جادًّا فى هذا النظم ، وإنما كان يلهو به ويمزح . لكن اللهو والمزاح يدلان على الحياة الأدبية والعقلية كما يدل الجد .

* * *

ويشبه المعرى المتنبى فى ظهور أثر القديم البدوى فى شعره ؛ فيتحدث عن العيس يشد عليها الرحال وما إلى ذلك . كما أنه قد تأثر بالمحدثين ، فوصف على السماع والتقليد ، وتفنن فى صفات الكواكب والنجوم ، كما وصف الخطّاف وغيره من الطيور على مذهب المعاصرين .

لكن هذا اللون من التكلف لما لا يحسه الشاعر لا يدخل فى باب الطبيعة إلا بقدر ما تدخل فيه طرديات أبى فراس الحمدانى ! .

٢

وعناية المعرى بهذه الأوصاف دليل على أن شعر الطبيعة ، لم يظفر فى أية بيئة مشرقية بمثل حظه فى كنف الحمدانيين . بل إن سيف الدولة نفسه كان مفتوناً بالطبيعة فتنة عبر عنها فى شعره . ومن ذلك قوله يصف قوس قزح :

وساق صبيح للصبوح دعوته فقام وفى أجفانه سنة الغمض
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفاً على الجوّد كناً والحواشى على الأرض
يطوف بكاسات العقار كأنجم فمن بين منقض علينا ومنفضّ

يطرزها قوس الغمام بأصفر على أحمر فى أخضر تحت مُبيضّ
كأذيال خَود أقبلت فى غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

ويظهر تأثره بأبى نواس فى البيت الأول ، وبأبى تمام فى الثانى ، وبابن المعتز فى الثالث . لكن هذا التأثر لم يكن عنه معدى لأبى فراس ولا لغيره من شعراء العصر ، ما دامت الثقافة الشعرية ضرورية للشعراء ، وما دام المحدثون قد فتنوا بالسابقين منهم فتنة القدماء بامرئ القيس .

والعناية بالطبيعة تبدو فى أشعارذلك العصر جميعاً . فالنامى ، والزاهى ، وأبو الفرج البيغاء ، وأبو الفرج الوأواء ، وبن سنان ينتخبون من الطبيعة لوناً أو ألواناً يعجبون بها ويعرضونها .

* * *

فأبو العباس أحمد بن محمد النامى قد اتخذ من الطبيعة صورة لفؤاده المعذب ، يبثها آلامه ، ويضفى عليها شجونه .

قال فى صفة المزن :

خليلى هل للمزن مقلة عاشق ؟ أم النار فى أحشائها وهى لا تدرى !
أشارت إلى أرض العراق فأصبحت وكاللؤلؤ المبتول أدمعها تجرى
تسربل وشياً من حزوز تطرزت مطارفها طرزاً من البرق كالتبْر
سحاب حكت ثكلى أصيبت بواحد فعاجت له نحو الرياض على قبر
فوشْيٌ بلا رقم ، ونقش بلا يد ودمع بلا عين ، وضحك بلا ثغر !

وهو لا ينسى البديع والعناية بإبراز الألوان ؛ لكن التأنق فى النظم لا يظهر ، وإنما يتلاشى فى عاطفة الشاعر الموقدة . وتبدو فى جملة شعره روح التأمل الطبيعى ، لكن المدح غلبه على أمره ، كما غلب المتنبى من قبل .

والزاهى يعنى بتصوير الطبيعة على نحو فيه تأنق وعناية بالشكل ؛ لا يطالع فيه الإنسان حبا وإنما يطالع براعة فى النظم ، أو بعبارة أدق تغلب براعة النظم ما عداها فى شعره .

أما أبو الفرج البَّغاء فقد دفعه اللقب إلى العناية بوصف البيغاء . ودارت بينه وبين أبى إسحق الصابى مراسلات نظمية فى صفة البيغاء وغيرها من الطيور . واصطنعا فى أكثرها

الأسلوب المزدوج الشائع فى شعر الشام لذلك العصر ، لكنه لم يبلغ من الابتذال ما بلغه عند غيرهما.

ومن شعر الصابى فى صفة الببغاء :

تحبس فى حلتها الخضراء مثل الفتاة الغادة العذراء
خريدة خُرودها الأقفاص ليس لها من حبسها خلاص
تحبسها وما لها من ذنب وأنما تحبسها للحب

ومن قول الببغاء :

وحسن منقار أشم قان كأنما صيغ من المرجان
صيّرها انفرادها فى الحبس بنطقها من فصحاء الإنس
تميزت فى الطير بالبيان عن كل مخلوق سوى الإنسان

وأضفى عليها من الصفات اللسن والشجاعة والجمال ؛ كما أضفى على السنجاب ، من أجلها ، الذكاء ، وجمله فى أحسن صورة فقال :

قد بلونا الذكاء فى كل ناب فوجدناه صنعة السنجاب
حركات تأبى السكونَ وألحا ظ حِداد كالنار فى الالتهاب
خف جدا على النفوس فلوشا ء ترامى بجاوراً للتصابى
واشتهت قربَه العيون إلى أن خلتُه عندها أخاً للشباب

فأبو الفرج قد فتن بالحيوان فتنة وألفه إلفاً ، يتتبع حركاته ، ويصفه من حميد الصفات بما يلائمه ويدل عليه . وهو فى صفاته يعنى بالمعانى أكثر من عنايته بالبديع .

ومما يدل على إلفه الشديد للحيوان قوله فى صفة الثعلب ، مجلياً له فى ثوب من الحسن ، وآخذاً من الاحتيال فى النظم بنصيب :

وأعفر المسك تلقاه فتحسبه من أدكن الجو مخبوء بخيفان
كأن أذنيه فى حسن انتصابهما — إذا هما انتصبا — للحسن زُجّان
يَسرى ويتبعه من خلفه ذنب كأنه حين يبدو ثعلب ثان
فلا يشك الذى بالبعد يبصره فرداً بأنهما فى الخلقة اثنان

ونحو هذا أوصافه للفرس والبغل والهرة والعقاب [١] . وفى وصفه للفرس نجد طرافة لا تقل عما نجده فى أوصافه لهذه الحيوانات التى لم يصف بعضها القدماء .

وقد أخذ كذلك بحظ من مذهب أبى نواس فى التغنى بالخمر وسط الطبيعة ، وبخاصة أيام الربيع ، كما وصف الغيث وصفاً طريفاً .

ونظمه فى جملته رقيق ؛ يُعنى بالمعنى مع اللفظ ، فلا يقصر الشاعر همه على البديع [٢] .

وأبو الفرج الوأواء وصف الحيوان وجمله ، سالكا الطريق الذى سلكه البَبّغاء . ومن طريف وصفه للبغل قوله :

ملء الحزام وملء اليدِّ مجفره يريك غايته فى الحسن حافره
أهدى لها الروض من أوصافه شية خضراء ناضرة إذ حال ناضره

لكنه قد عنى عناية خاصة بوصف الطبيعة فى جو الخمر . وقصائده فى هذا الباب تنطق بصادق الحب للطبيعة بل بتقديسها . ومنها قصيدته :

زمان الرياض زمان أنيق وعيش الخلاعة عيش رقيق

وجاء فيها :

ويوم ستارته غيمه وقد طرّزت رَمْزَ فِيهَا البروق
جعلنا البخور دخاناً له ومن شرر الراح فيه حريق
تظل به الشمس محجوبة كأن اصطباحك فيه غبوق
على شجرات رافعات الذيو ل لماء الجداول منها شهيق
سجدنا لصلبان منشورها وقد نصّرتنا عليه الرحيق

وهذا البيت الأخير ناطق بمدى الحب للطبيعة ، ذلك الحب الذى يبلغ درجة العبادة ، والذى لا يتحرج فى مقامه الشاعر المسلم من مثل هذه الألفاظ . لكن الطبيعة قد استولت على حسه ، فلم يعد يخشى الإفصاح عن حبه . وكيف لا يعلن حبه ، وكيف يحترس فى هذا الإعلان ، وهو يتغنى بالخمر ويمثل جوها الإباحى الطروب ؟ إنه الفن يبيح لصاحبه كل شىء ، ومتى صح أن يؤاخذ الناس ، والفنانون منهم خاصة ، بما يتخيلون بل بما يبطلون ؟ !

* * *

(١) نهاية الأرب : ج ٩ ص ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ج ١٠ ص ٥٨ ، ١٨٣ .

(٢) يتيمة الدهر : ج ١ ص ٢١٦ – ٢١٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣ – ٢٣٤

وهذه الأوصاف المختلفة ، وتلك الألوان الطبيعية التى عنى الشعراء بها ، قد ورثوها فى الواقع من طلائع شعراء الطبيعة المحدثين : أبى نواس ، وأبى تمام ، والبحترى ، وابن الرومى ، وابن المعتز . وقد اكتملت وبلغت الغاية عند الصنوبرى وكشاجم والسرى الرفاء ، فلنفرد كلا منهم بحديث فى هذا الباب .

٣

(١) أما أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبرى فقد اجتمعت له المقومات ليكون شاعراً ممتازاً فى الطبيعة . وجد فى هذا الجو الذى يعنى بوصف الطبيعة ، وولد بأنطاكية فى القسم الشمالى من سورية وسط سهل خصب جميل ، فى الحوض الأدنى لنهر العاصى على مقربة من مصبه . وقد تداولتها الحضارات اليونانية والرومانية والفارسية ، وعرف حكامها قبل الميلاد بحبهم ورعايتهم إياها . ولقب الصنوبرى الذى ورثه عن آبائه يدل على أن أسرته قد اتصلت بأشجار الصنوبر اتصال عمل واستثمار ، وإن روى ابن عساكر أنه لقب بهذا اللقب إشارة إلى ذكائه وحدة مزاجه [١] ، فهذا تفسير الصنوبرى نفسه ، ومن المحتمل أنه استخلص من اللقب أجمل معانيه . ورأى آخرون كذلك أنه لقب به إشارة إلى صورته المخروطية التى تشبه ثمر شجرة الصنوبر [٢] .

وكيفما كان الأمر فقد فسر الصنوبرى هذا اللقب تفسيراً تتجلى فيه روحه الطبيعية ؛ تلك الروح التى تدفعه إلى أن يفضل حسن اللقب على حسن النسب ، وأن يفديه بأبيه وأمه ، وأن يبالغ فى إظهار حبه للصنوبر والتغنى بنضارته وثمره [٣] .

وكان يعمل خازناً فى مكتبة سيف الدولة .

وتدل سيرته على أنه كان محبًّا للتجوال ، كثير الرحلات ، « يألف الرياض النضرة ، والحدائق الملتفة ، ويميل إلى الغناء والمداعبة » [٤] ، وأن حبه للطبيعة كان عميقاً ، وأنه يصدر فى شعره عن تجاربه وشعوره الصادق .

(١) محمد راغب الطباخ : الروضيات ؛ ط حلب سنة ٣٢ : ص ١٢ .

(٢) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع : ص ٤٠ (الترجمة العربية) .

(٣) نهاية الأرب : ج ١١ ص ٩٨ – ٩٩ .

(٤) الأنطاكى : تزيين الأسواق ، ص ١٧٩ .

كتب أليه صديقه كشاجم يقول فى قصيدته :

فـأهتك بَسَـاتـيـنُ ك ذات النَّور والزهر
وما شيدت للخلـ ـوة من دار ومن قصر
وما جمعت من غرس ومن فَسْل ومن بذر
ونـارنج وريحان جـنىٍّ طيب النشر

وشاعر هذا شأنه ، نشأ فى بيئة ثقافية تتغنى بالطبيعة ، وفى بيئة وطنية ذات نَوْر وماء ونضارة ، وفى بيئة منزلية تتصل بالطبيعة فى النسب ، واجتمع له المرح وحب الرحيل واستجلاء محاسن الكون ، وبلغت فتنته بالرياض أن يتوفر على حديقته هذا التوفر ، وأن يستغنى بها عن الناس – شاعر هذا شأنه لابد أن يبرّز فى وصف الطبيعة تبريزاً جعل آدم متز يعده أول شاعر للطبيعة فى العربية(١) ، ملاحظا المعنى الخصب لها ذا النَّور والماء ، ومتأثراً بما روى له من أوصاف طبيعية ، ومن تنويه للقدماء بها .

لكننا ، بعد أن رأينا شعر الطبيعة عند القدماء والمحدثين وما سنرى من أمر الصنوبرى وسيره فى طريقهم ، لا نستطيع إلا أن نرد هذه الأحكام إلى المبالغة ، ونسيان الصلة بين الماضى والحاضر . ولا ريب أنه قد تأثر بكتاب العربية الذين يحبون دائماً أن يميزوا كل شاعر بخصوصية ، لكنهم لا يقصدون بحال إلى هذا اللون من الأولية أو التخصيص . فقد قالوا : روضيات الصنوبرى ، كما قالوا : خمريات أبى نواس ، ونقائض جرير . وذكر له ابن منظور صفات الربيع (٢) ، كما ذكر البديع لأبى تمام ، والخمر لأبى نواس وغير ذلك . وقال عبد الله محمد بن شرف القيروانى : «وهو وحيد جنسه فى صفة الأزهار وأنواع الأنوار» . وهذه عبارة لا تؤدى ذلك المعنى الذى قرره «آدم متز» كما لا تؤديه العبارات السابقة ، وإنما تدل على التفوق . وقد قال ابن شرف فيه كذلك : «مدح وهجا وسر وشجا . . . وشرق وغرب (٣) » ؛ فدل على أنه قد أخذ من الطبيعة بحظ ممتاز ، ولم يدل على أولية فيها أو انفراد بموضوعها . وما أشق الأحكام الجازمة وبخاصة فى باب الأوليات ، وفيما إذا كان الشاعر ، كما هو الشأن فى الصنوبرى ، لم يصلنا شعره تامًّا أو قريباً من التام ، وإنما ورد مفرقاً فى كتب الأدب وأوراق الورّاقين ! وما اجتمع لكل من أبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن المعتز فى باب الطبيعة لا يقل

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ؛ الترجمة العربية : ص ٤٣٠ .
(٢) نثار الأزهار : ص ٢٨ .
(٣) أعلام الكلام : ص ٢٤ .

عما اجتمع فيها للصنوبرى . وقد رأينا عند بعضهم كأبى تمام وابن المعتزفتنة بالغة بالطبيعة . ولعل القدماء قد لا حظوا اتباعه لأبى تمام فسموه حبيباً الأصغر [١] .

(ب) ومهما يكن من أمر فقد كان الصنوبرى يهيم بالطبيعة المزهرة المشرقة خاصة ، ثم لا يعدم المتاع فى مظاهرها المختلفة وموجوداتها المتنوعة .

كان يفضل الربيع ، كما فضله من قبله ، لأنه يرضى حاسته البصرية المفتونة باستجلاء الألوان ، النهمة إلى النُّور والنَّور ، كما يرضى أذنه التى تطر بها أصوات الطبيعة يغنيها القمرى والفاختة والشفتين والزرزور والهزاران ، أكثر مما يطربها العود أو الطنبور ، وكما يرضى أنفه الذى يمتلئ بأرج الربيع فلا يجد معنى للمسك من بعده ولا للكافور ، وكما يرضى بعد ذلك كل نفسه فتطمئن إليه ، وإن لم تكن هناك بيئة خصبة مزهرة وإنما كانت صحراء قاحلة .

فمعانى الربيع عنده كثيرة ؛ تتصل بالسماء كما تتصل بالأرض ، ويتأثر بها الحس كما تتأثر النفس ، وتعطر أرجاء العالم وبقاعه جميعاً [٢] .

ولم لا يفتن بالربيع هذه الفتنة ، وهو يراه روح الحياة ، ومصدر اليقظة فى الطبيعة ، يكشف عن الجمال المستور ، ويرضى حاجة القلب ، ويؤدى إلى متاع عظيم يكبر فى عين الشاعر حتى يقدسه ويرى فى مرور اللئام برياضه دنساً له ، كما يرى معاقبتهم بالحرمان منه ؟ ! ولعله قد نسى ، لشدة ما أدرك من حسن الربيع ، أن اللئام بعيدون عن هذا المتاع الروحى ، وأن النفوس الشاعرة المهذبة هى أصحابه وحدها . إنه يهتف بالحبيبة أن تتمتع بجمال الربيع فيقول :

يا ريم قومى الآن ويحك فانظرى ... ما للربى قد أظهرت إعجابها !
كانت محاسن وجهها محجوبة ... فالآن قد كشف الربيع حجابها
وردٌ بدا يحكى الخدودَ ونرجسٌ ... يحكى العيون إذا رأت أحبابها
وشقائق مثل المطارف قد بدت ... حمراً وقد جعل السواد كتابها
ونبات باقلاء يُشبه نَوْره ... بُلق الحمام مُشيلةً أذنابها
والسَّرْو تحسبه العيون غوانياً ... قد شمَّرت عن سُوقها أثوابها
وكأن إحداهن من نفح الصبا ... خَود تلاعب موهناً أترابها

---

(١) العمدة : ج ١ ص ٦٤ .

(٢) راجع الأبيات التى أولها :

إن كان فى الصيف ريحان وفاكهة ... فالأرض مستوقد والجـــو تنور

لو كنت أملك للرياض صيانة يوماً لما وطىء اللثام ترابها

وهكذا يتصور الربيع متاعاً كبيراً ، والحرمان منه عقاباً شديداً . ويبلغ من شدة تقديره لهذا المتاع وإعزازه إياه أن يتوجس خيفة من ذهابه ، وأن يعنى بالخريف فيقول داعياً إلى المتاع به :

ما قضى فى الربيع حق المسرا ت مُضِيعٌ زمانه فى الخريف
نحن منه على تلقى شتاء يوجب القصف أو وداع مصيف
فى قميص من الزمان رقيق ورداء من الهواء خفيف
يرعد الماء منه خوفاً إذا ما لمسته يد النسيم الضعيف

بل أى شاعر لا يستخفه الطرب ؛ متى تهيأ له حس الصنوبرى فى قوله :

ذهّب كؤوسك يا غـــلا م فإن ذا يوم مُفضَّض
الجو يُجلى فى الرياض وفى حلىّ الدر يعرض
أتظن ذا ورداً وذا ثلجاً على الأغصان يُنفض
ورد الربيع ملوّن والورد فى كانون أبيض

إنه جمال الطبيعة قد تشاكل فى الربيع وفى الخريف وفى الشتاء ، فتشابه عليه واستولى على نفسه ، فعبر عنه هذا التعبير العذب البارع . وإذا كان الربيع بهجة الحياة وشبابها ، كما قال من قبله وكما صوره هو ، فإن الطبيعة موفورة الجمال والمسرة فى غيره من الفصول كذلك ، والثلج يفتنه فى الشتاء كما يفتنه فى الربيع ، وما الثلج إلا ورد !

(جـ) ولطربه بالطبيعة يهتف بالخمر فى إبان جمالها . والخمر عنده لون من ألوان الطرب الربيعى التى ينشرها فى الرياض أزهاراً بيضاء وحمراء وخضراء وصفراء ، وفى الحمائم لحناً عذب النغم . والطرب يدفع إلى الطرب ، والنعيم يهتف بالنعيم ، ولهذا ينادى بأعلى صوته عند قدوم الربيع ، بعد أن يعدد ألوان متاعه السمعى والبصرى :

سقّيانى بكل لون من الرا ح على كل هذه الألوان

ولا ريب أن طربه بالطبيعة لا يقاس إليه طرب . وكيف يكون المفرد كالجمع ! وهذا ديدنه دائماً على العكس من أبى نواس الذى يغلب صوت الخمر عنده كل صوت ، ويبدو ما عداها مندرجاً تحتها . فالطبيعة الجميلة هى التى تحرك الصنوبرى للخمر :

يا نديمى ! أما تحنّ إلى القصـ ـف فهذا أوان يبدو الحنين ! !
ما ترى جانب المصلّى وقد أشرفت منه ظهوره والبطون ! !

أسرجت فى رياضه سرج القطـ ـر وطابت سهوله والحزون !

بل إن الصنوبرى لا يشرب الخمر إلا من يد الطبيعة مصورة فى ساق ؛ ولهذا يصور الساقى بستاناً ، قاصداً إلى خلق التشابه بينه وبين البستان فيقول :

لا أشرب الكأس إلا من يَدَىْ رَشأ مُهفْهف كقضيب البان ميّاس
مورّد الخد فى قمص موردة له من الآسِ إكليلٌ على الراس
قل للذى لام فيه هل ترى خلفاً يا أملح الروض ، بل أملح الناس !

وفى الغموض جمال يفتنه كما فتنه ثلج الشتاء من قبل ، وكما يفتنه النظر لاغبرار لون النهر يرتفع فيه الموج أبيض كالخيل ثم يتكسر فيستخفه الطرب ويهتف بالخمر :

اليوم يا هاشميّ يوم لباسه الطل والضباب
عيّد فى عيدنا « قُويق » وخَلقت وجههَ السحاب
ما لوّن الزعفرانُ ما قد لوّن من مائه التراب
تذهب أمزاجه كخيل شقر لها وسْطه ذهاب
فبادر الشرب قبل فوت قد برد الماء والشراب

لكن صوت الخمر يبدو فى كل ذلك ضعيفاً لا يقاس إلى فتنة الشاعر بالطبيعة .

(د) وتعلقه بالوطن وثيق الصلة بحبه لطبيعته . والحسن عند الشاعر مشتق من الطبيعة دائماً ؛ فالعيش بحلب مستطاب لأن طبيعتها مشرقة زاهرة الأعلام :

إذا نشر الزهر أعلامه بها ومطارفه والعَذَاب
غدا وحواشيه من فضة تروق وأوساطه من ذهب

وأن جبلها « جوشن » لتثاب العيون على التطلع إليه ، وتمتلئ من جماله المتسامى :

وللظهر من حلب منزل تثاب العيون على حجه
أعِدْ نحو جَوْشَنه نظرة إلى سَمْتِه وإلى برجه
إلى بانِقُوسا وتلك التى حكت راكباً لاح من فجّه
لترتاض نفسك من روضه ويمرح طرفك فى مرجه

وهكذا يمثل معانى التعلق بالطبيعة ؛ للبصر ثواباً ومتاعاً وللنفس رياضة . ولعله لم ينشد فى التعلق بحلب أروع من مطولته الرقيقة :

احبسا العين احبساها وسلا الدار سلاها

ومنها قوله الطروب :

أى حسن ما حوته حلب أو ما حواها
سروها الدانى كما تد نو فتاة من فتاها
آسُها الثانى القدود الـ ـهيف لما أن ثناها
نخلها زيتونها أو لا فأرطاها عصاها
قَبْجُها دَرَّاجها أو فحباراها قطاها
ضحكت دُبْسِيَّتاها وبكت قُمْرِيَّتاها
بين أفنان تناجى طائريها طائراها

إن فى هذا الترديد لموجودات الطبيعة الجميلة والإعجاب بالبعض ثم الإضراب عنه أو الانتقال إلى غيره – لدليلاً على الهيام والبهر الشديدين . وقد مثل فيها « حلب » جميلة جذابة قد ألبستها الطبيعة حلة لحمتها السوسن وسداها الورد ، وزيّنها سائر الزهر (١) .

ولا يقل براعة وفتنة عن هذه القصيدة وصفه لنهرها « قويق » فى قصيدته :

قويق له عهد لدينا وميثاق وهذى العهود والمواثيق أطواق

وهذا المطلع بقافاته وهذه القافية خير ما ينطق بعناية الشاعر الموسيقية ؛ تلك العناية التى تبدو فيما مر من شعره وفى سائر شعره ، فكأنما كان يرقص أو يتغنى طرباً ونشوة .

وقد مثل النهر فى جو السلام والأمن ؛ فلا تمساح ولاغرق ولا اصطخاب ، وإنما جمال طبيعى هادئ يتمثل فيه صفاء البلور وبياض اللؤلؤ وألوان النبت والزهر ، ويزيده جمالا طيب الرائحة وشفاؤه للشارب .

وهو عاشق له ، بل الناس جميعاً عاشقون له فى رأيه ، وإن عايبوه فلا تصدق قولهم فيه ! وأى عيب له ؟ إن هذه العيوب لمحاسن ومباهج :

وقالوا : أليس الصيف يُبلى لباسه فَقلت : الفتى فى الصيف يقنعه طاق
وما الصبح إلا آيب ثم غائب تواريه آفاق وتبديه آفاق
وما البدر إلا زائد ثم ناقص له فى تمام الشهر حبس وإطلاق

واعتذر فى قصيدة أخرى عن نقصه فى الصيف بالمزاج ، فقال إنه ينحل فى الصيف وينمو فى الشتاء شأن أصحاب الأمزجة الصفراوية جميعاً :

(١) الروضيات : ص ٣٣ – ٣٤ .

قويق على الصفراء ركب جسمه رُباه بهذا شهّد وحدائقه
إذا جدّ جد الصيف غادر جسمه ضئيلا ولكن الشتاء يوافقه

ويقتضيه الحب للنهر مداعبته ، فيقول واصفاً حاله فى الصيف :

إذا ما الضفادع نادينه : قويق ! قويق ! أبى أن يجيبا
وتمشى الجرادة فيه فلا تكاد قوائمها أن تغيبا [1]

هو يحب دمشق كذلك من أجل طبيعتها الصافية ويتفنن فى تصوير هذا الحب [2] :

صفت دنيا دمشق لقاطنيها ولست ترى بغير دمشق دنيا
تفيض جداول البلّور فيها خلال حدائق ينبتن وشيا

(هـ) وقد رأينا فيما سبق عنايته بالزهور وأوصافها فى الربيع . والحق أن عنايته بها أعظم مما سبق . يفتن بالنرجس أبهى زهور الشام ، ويقيم المعارك بين الزهور على نحو يزيد فى تصوير فتنتها يقيمها بين الورد والنرجس .

زعم الورد أنه هو أزهى من جميع الأزهار والريحان
فأجابته أعين النرجس الغضّ بِذُلٍّ من قولها وهَوان
أيما أحسن : التورّد أم مقلة ريم مريضة الأجفان !
أم فماذ يرجو بحمرته الور د إذا لم تكن له عينان
فزها الوردُ ثم قال مجيباً بقياس مستحسن وبيان
إن ورد الخُدود أحسن من عين بها صُفرة من اليَرقان [3]

وهو فى هذا يفضل الورد ضمناً ؛ إذ يصف قياسه بالمستحسن ، وإن بدا فى موقف المنصف .

وهذه الروح المحايدة التى تتذوق الجمال فى ألوان الزهر تبدو فى معركته الكبرى التى يقيمها بين الزهور ، إذْ ينصب نفسه حكما بينها ، منقذاً النرجس الضعيف الغض من حملات الزهور عليه ، وجامعاً لها جميعاً بين غناء الطير والأوتار ، مؤلفاً بين الطبيعة الصامتة ، والطبيعة الحية فى مجلس فاتن. لقد مثّل رواية جعل النرجس بطلها ، ونفسَه حاميا له ، ومثل الورد فى موقف

---

(١) الروضيات : ص ٤٣ – ٤٦ .
(٢) نفس المرجع : ص ٢٦ – ٣٠ .
(٣) الصلاح الصفدى = شرح لامية العجم : ج ٢ ص ١٥٨ .

معاكس تلتف الزهور جميعاً حوله وتؤيده فى المعركة ؛ فإذا كان هناك ملك للزهور عند الصنوبرى فهو الورد ذو القيادة والجيش ، يتلطف الصنوبرى إليه كى يصرف الأذى عن النرجس :

خجِل الورد حين لاحظه النر ... جس من حسنه وغَارَ البَهَارُ
فعلت ذاك حمرةٌ وعلت ذا ... صفرة واعترى البهارَ اصفرار
وغدا الأُقْحوان يضحك عجباً ... عن ثنايا لِثَامُهُنّ نُضار
ثم نم النّمنّامُ واستمع السو ... سن لمّا أُذيعت الأسرار
عندها أبرز الشقيقُ خدوداً ... صار فيها من لطمِه آثار
سُكبت فوقها دموعٌ من الطـــــل كما تُسكب الدموع الغزار
فاكتسى البنفسجُ الغضُّ أثوا ... ب حداد قد خامها الاصطبار
وأضر السقامُ بالياسمين الغـــــض حتى آذى به الإضرار
ثم نادى الْخَيْرِىُّ فى سائر الز ... هر فوافاه جحفل جرار
فاستجاشوا على محاربة النر ... جس بالجحفل الذى لا يبار
فأتوا فى جواشن سابغات ... تحت سجف من العجاج يُثار
ثم لما رأيت ذا النرجس الغـــــض ضعيفاً ما إن لديه انتصارُ
لم أزل أعمل التلطف للور ... د حذاراً أن يُغلب النَّوار
فجمعناهم لدى مجلس فيـــــه تُغنِّى الأطيار والأوتار
لو ترى ذا وذاك قلت خدود ... تُدْمن اللحظَ حولها الأبصارُ

والطريف عدا ما سبق هو تفسير أشكال الزهور فى هذه المعركة على نحو بديع ، تظهر فيه مميزات الصنوبرى وطريقته التى تعنى بإبراز المعانى والقصد فى البديع . وقد مثل ضعف النرجس فى مواضع أخرى من شعره [1] ، وعنى بتصوير شكله على طريقة ابن المعتز . وتبدو هذه الطريقة فى أوصافه للبهار والشقيق ، لكن له أوصافاً أخرى للشقيق بعيدة عن التقليد تتجلى فيها الفتنة وروح الشاعر قبل أن تتجلى العناية بإبراز الشكل والصورة [2] ، وإن كانت هذه العناية غير خافية .

---

(١) نهاية الأرب : ج ١١ ص ٢٣٠ .
(٢) المصدر السابق : ص ٢٨٣ - ٢٨٥ .

والصنوبرى يصف كذلك البقول والفاكهة على نحو ما يصف الزهور ، مجلياً لمعانى الحسن الطبيعى ، وغير متأثر بنداء المعدة كما صنع ابن الرومى ، وأين هذا من ذلك ! ونحوه أوصافه للفول والفستق ، والخوخ والتفاح والباقلاء[1] .

وهكذا يحس الصنوبرى فى الفاكهة بمتاع للنفس والحس ، كما يحس فى الزهور والرياض .

(و) وليست الطبيعة الصامتة هى التى تستولى على نفسه بجمالها وحدها ، بل إن له فى الطبيعة الحية متاعاً كذلك . وقد رأينا عنايته بالطيور وتغريدها ، وإقامتها مُقام السلام فى معركة الزهور .

ويمثل فتنته بالطير قوله فى الورشان ، الطائر المغرد :

أنا فى نزهتين من بستانى ... حين أخلو به ومن ورشان
طائر قلبُ من يغنيه أولى ... منه عند الغناء بالطيران
مسمع يودع المسامع ما شا ... ءت وما لم تشأ من الألحان
فى رداء من سوسن وقميص ... زرّرته عليه نشر بنان
قد تغشى لون السماء قَراه ... وتراءى فى جيده الفرقدان

ففتنته بغناء الطير بليغة حتى يجعل ألحانه تتسع لما يشاء الإنسان ، بل لأكثر مما يشاء ثم لم ينس مظهره ، فجمّله بحلة وضاءة نثر عليها الزهور والنجوم .

ومن ذلك وصفه للديك ، ويبدو أثر أبى نواس حين يصوره ملكا ذا تاج وفارساً مغواراً . ومنه قوله :

مغرِّدُ الليل ما يألوك تغريدا ... ملَّ الكرى فهو يدعو الصبح مجهودا
لما تطرَّب هذا العطف من طرب ... ومد للصوت لما مده الجيدا

فصور الديك صاحب سأم وملل ، وذا تغريد وتطريب ، تعبر حركاته عن حسه وشعوره كما تعبر حركات الإنسان .

ووصفه للهر يبين الهيام بالحيوان وتمام إلفه ، كما يصور المعنى السابق من رسمه ذا مظهر وإحساس ، وكما يدل على حس الشاعر المرهف . وشاعريته القوية ، وقدرته على تصوير

(١) نهاية الأرب : ج ١ ص ٢٠ و٩٢ و١٣٩ و١٦٦ .

التوافه ذات معان كبيرة تستحق العناية فى باب الشعر[١] .

فالصنوبرى شاعر من شعراء العربية الممتازين فى وصف الطبيعة ، تتوفر له عوامل التفوق فى فنه ؛ من الحب والصدق ، والمرح ، وإرهاف الحواس ، والتأمل فى الطبيعة ، وتصويرها جمة النشاط والحركة فى صور إنسانية ، لها مجتمعاتها بما فيها من تحاسد وتنافس وأهواء ونزعات ، وهواه معها يميل أنى مالت ، ويرنو إليها كيفما بدت ، سواء أبدت فى ثوب مشرق وضاء ، أم تجلت بلباس أدكن . وهو نتاج طبيعى لعصره وبيئته ونشأته .

٤
كشاجم

(ا) أما محمود بن حسين بن السندى بن شاهك المعروف بكشاجم ، فهو من أهل الرملة الفلسطينية . وإذا كان الصنوبرى عربى الأصل ينتسب إلى ضبة فهذا أعجمى الأصل . وإذا كان الصنوبرى خازناً فى مكتبة سيف الدولة فقد كان هذا طباخه ، وإذا كان فى لقب الصنوبرى دلالة ، فقد كان فى لقب كشاجم مثلها ، بل قيل إنه هو الذى نحت هذا اللقب دلالة على نواحى فضله ؛ فالكاف من كاتب ، والشين من شاعر ، والألف من أديب ، والجيم من جواد ، والميم من منجم . وليس هذا بعجيب فكثير من شعراء ذلك العصر جمعوا بين الكتابة والشعر ، والأدب عدة الشاعر ، والتنجيم ثقافة يثقفها الشاعر فى جملة ما يثقفه من المعارف ، والطبخ مهنة يتعيش بها الإنسان ، وقل من يولد بلا مهنة ، وما طباخ الملك كسائر الطباخين ! .

وشعره صورة صادقة له ، يظهر أثر التنجيم فى أخيلته ، كما يظهر أثر الأعجمية فى تشيعه وأثر المهنة فى أوصافه للقطائف والدجاجة المطبوخة والبطيخ المكسور ، وأثر الكتابة فى تشبيهاته .

(ب) وكان صديقاً للصنوبرى سائراً فى طريقه ، لكن أسوته فى أبى نواس أبرز وأشد وضوحاً . فالصنوبرى لم يصنع فى الأطلال أكثر من الإعلان بأن الرياض صرفته عن حديثها ، أما كشاجم فإنه يهاجمها فى سخرية تذكر بسخرية أبى نواس .

---

(١) نهاية الأرب : ج ٩ ص ٢٩٢ – ٢٩٣ ، ج ١٠ ص ٢٢٨ – ٢٥٩ .

ويبدو أثر القديم ، على هذا ، فى شعره كما بدا عند أبى نواس ، فتأثر بامرئ القيس وبالقدماء فى وصف صيد الوحش والظباء والفرس ، واصطنع الرجز كذلك ، وورد للأطلال ذكر فى شعره يشبه الصلة بين القديم والحديث ، أو الماضى فى الحاضر (١) .

وقد أمعن فى اتباع طريقة أبى نواس إذ ربط بين جمال الطبيعة وجمال الخمر ، وبدت عنده الخندريس بشكلها ورائحتها تملأ العين والأنف ، وتحتل المكان الأول (٢) .

وقد ينال الصباح عنايته لكنها عناية خمرية أكثر منها طبيعية ؛ فالديك يهتف بالخمر ، وعبير الصباح من عبير الصبوح ، والطبيعة تجلى معانى الخمر . ونغمة الطبيعة مع هذا عذبة فى شعره .

وقد ينال الديك منه عناية أعظم ، كما صنع أبو نواس ؛ فيسميه مطرب الصبح ، ويتوجه على الطير ، ويجليه فى ألوان الصباح الفاتنة بغموضها ، وبما يتنازعها من نور آت وظلام ذاهب (٣) .

على أن صوت الطبيعة قد يكون مدوّياً يملأ السمع والقلب ، كما بدا فى وصفه لمكان المتاع والشراب بين فواتن الطبيعة ، من روضة محلاة تلذ العيون ، وغيث يبكى ، وبرق يضحك شامتاً ، وورد كأنفاس الحبيب ، وأترج كالنهود ، وبلابل وفواخت تتجاوب النغم ، مما يذكرنا بروح الصنوبرى الوثابة (٤)

وقد تأتى الخمر وحديثها الطويل تحية للربيع ، كسابقه كذلك ، لكن هذه التحية تنطق بالحب للطبيعة المتنوعة الأسباب فى جو الغيم البديع والغموض الفاتن ، تتخلله لمحات من البدر والبرق تبعث فى النفس أملاً لا يلبث أن يزول ، زوال فرح الحبيب بهم بتقبيل حبيبه ثم تصرفه أعين الرقباء ؛ وفى جو الصداقة ، والتآخى ، مع الغيث والترحيب بالربيع (٥) .

وإذا كان أبو نواس قد رحل إلى الكرم وسفح فى ظلاله دم الخمر ، فإن كشاجم قد رحل إلى حقل الباقلاء ، وصنع صنيع سابقه مبكراً تبكيره ، ومحتفلاً للأمر احتفاله ، وصائغاً نظمه رجزاً مثله (٦) . وفى هذا المقام جمل الباقلاء كما جملها الصنوبرى ، وأضفى عليها من سمات

---

(١) ديوان كشاجم : ص ٣٠ و٧٥ و٨١ و٨٢ و١٢٥ و١٦٥ .

(٢) ديوان كشاجم : ص ٣١ .

(٣) نثار الأزهار : ص ١٠٠ .

(٤) الديوان : ص ١٩ .

(٥) راجع قصيدته : حى الربيع تحية المستقبل أهدى لنا غيما بغيث مسبل

(٦) الديوان : ص ٤٤ – ٤٥ .

الحسن وبدائع المظهر ألواناً باهرة. وظهر تأمله النفسى فى تشبيهها بالمعنويات نحو قوله :

حبات در قمّعت بإثمد مشبطات كالهلال المبتدى
يفتّر عن فيروزج رطب ندى

وأبو نواس قد أفاض فى وصف النخل من أجل الخمر ، وهذا قد أفاض فى وصفها كذلك ، وجلاها فى ثياب من الحسن متنوعة ؛ تفتن البصر :

كالذهب الإبريز لوناً ومحل لو نظَمته البكر عِقداً لاحتمل
وفاق عِقدَ الدر لوناً وفضل

وتفتن القلب :

كأنها أطرافُ ربات الكِلل لم يندرس خضابها ولا نصل
يُومين بالتسليم إيماءَ بدل

ويفتن الذوق فلا يمله أبداً :

نسلِفه ماء ويقضينا عسل يُمَل إدراك المنى ولا يُمل
حسبك أن طعمه يَشفى العلل

وتزاد فتنته بتنوعه :

ما زال فى الأشياء يغدو ويحل يَشمس أحياناً وأحياناً يَظِل
ويكتسى من صنعة البدر حلل كأنه فى الخد ألوانُ الخجل

إنه متاع مزدوج :

فأمتع الأفواه منه والمُقل فى هذه لذ وفى هاتيك جل !

(جـ) ويعد الصنوبرى أول من تغنى بالثلج وبدائعه . وإذا لم يَرِدْ له فى هذا الباب سوى أشعار قليلة ، فإن حظ كشاجم من الثلجيات أعظم ، وفتنته بها أبهر من كل فتنة ، والخمر تأتى فيها تبعاً ومكملا ، ولوناً من ألوان السرور فى جوهر المسرة الطبيعية . تستهويه الطبيعة فيغنى :

ثلج وشمس وثوب غادية فالأرض من كل جانب غُرّة
باتت وقيعانُها زَبَرْجدةٌ وأصبحت قد تحوَّلت دُرة

إن هذا جمال يشبه السحر الذى تتحول به ألوان الأشياء إلى نقائضها من أخضر إلى أبيض ، بل هو أعظم من السحر لأنه يحيل طبائع الأشياء كذلك :

شابت فسرت بذاك وابتهجت وكان عهد المشيب لى نكره

ثم يستخفه الطرب فى عرس البلدة التى لبست بياضاً ، فيهتف بالخمر :

قد جُلِيتْ بالبياض بلدتُنا فاجْلُ علينا الكؤوس فى الخمره

لأن الطرب يتم بها فى جوه الذى يجد فيه البصر والأنف والنفس متاعاً ، كما أفصح فى قصيدة أخرى (١) .

(د) والصنوبرى قد تغنى بنهر قويق ملء الفم والقلب ، وفتن الناس بغنائه لا ريب ، فلابد لكشاجم من أن يتغنى به عله يفتن الناس ويطربهم أيضاً . ولكن أنى له هذا ! لقد شاب وصفه تلك الشوائب التى تحط من قدره ؛ أحب النهر من أجل غلام فاتن ، وصفه ووصف الخمر التى يشربها فى مطلع القصيدة ، ثم انساب إلى وصف الزرع على نحو لا يبدو فيه الحب قدر ما تبدو الصنعة . ومن ذلك قوله :

وحمرة فى شقيق وخضرة فى زبرجد

وأقحوان كعقد . . من لؤلؤ قد تبدد

وقد تبدو بعض تشبيهاته غير جميلة كقوله :

والنهر بين اعتدال من سيره وتأود

كأفعوان تلوى ثم استوى وتمدد

وقد تبدو بعض صوره من باب الوهم الجميل الرائع كما فى قوله :

كأن أوراقه الخضر بين مَثْنَى ومَوْحَد

آثارُ أخفافِ إبل فى تربةٍ من زبرجد

ثم يعود إلى الحبيب يفتن به وبمتاعه ، فينفق فى حديثه أكثر مما أنفق فى حديث النهر (٢) . وهكذا يؤدى للفن حقه ، ولا يؤدى للنهر وللفتنة بالطبيعة كل الحق .

(هـ) على أن الشاعر إذا قصر فى ناحية ، أو شابت فنه فيها شائبة ، فليس معنى هذا أنه متخلف أو مقصر فى شعره كله . فكشاجم له من الصور الطبيعية ما يتتبع فيه الموصوف ويجليه تجلية إنسانية ، ويصوره ذا عواطف وأحاسيس وذا جمال يسر الحواس كما يسر القلب .

---

(١) الثلج يسقط أم لجين يسبك أم ذا حصا الكافور ظل يفرك !

(٢) الديوان : ص ٤٨ – ٥٩ .

ومن أبرع أوصافه للسحابة قوله :

غَادِيَةٌ والشمسُ فى طِرادها مكنونُها للسر فى فؤادها
مريضةٌ تشكو إلى عُوَّادِها بياضُها قد ضاع فى سوادها
تكاد لولا الماء فى مَزادها تحرقها البروق باتّقادها
لها على الرياض فى بعادها تعطُّفُ الأمِّ على أولادها
كأنها للحلى فى أجيادها وللذى يُنثر من أبرادها
على رُبَاها وعلى وهادها مغيِّرة تُفرط فى كيادها
لغائظِ الناظر من حُسّادها فراوح الخمرة أو فغادها

ولا جرم أن الشاعر قد جهد فى تأليف هذه الصورة ، وإن استعان فيها بمعانى القدماء والمحدثين ، وهو فى الوصف يتنقل بين جوَّين : جو السحابة المريض ، وجو الروض المملوء نشاطاً ، بل غيرة واتقاداً وتباهياً بما فى جعبته من ألوان وزهور . وهذا النوع من تناقض العرض قد تفنن فيه المحدثون لهذا العصر وما قبله .

على أن الوصف قد يسوده جو واحد ، وهو جو المودة بين السماء والأرض ؛ فيصور السحابة مقبلة ، والرعد يحدو الودق بخطبة رنانة مرتجلة ، والريح توقِّرها فلا تستعجلها بأكثر من جذب الذيل ، والزهر يصغى إليها ، كأنما يسأل عن حالها ، بل كاد أن يهم باستقبالها ، فتدنو من الأرض فى دلال وتَجُودُها [1] .

كما أنه قد يجلى طريقة امرئ القيس القديمة فى وصف السحابة والغيث والفرس ، ويبالغ فى اتباعها فيذكر سرب الظباء كالعذارى وتفريق الفرس له ، لكنه يعرض هذا القديم فى ثوب لا يقل بهاء عما سبقه [2] .

وقد يعنى باللون ، كقوله يصف الأترج :

سلاسل من زبرجد حملت من ذهب أصفر قناديلا [3]

---

(١) المصدر السابق ص ١٥٩ .
(٢) الديوان : ص ٥٨ .
(٣) نهاية الأرب : ج ١١ ص ٢٣٠ .

أو النارنج :

زمرد أبدى لنا أنجماً معجونةً من خالِص التبر [١]

أو النرجس :

أنـــامـــلٌ من فضة يَحْمِلن كأساً من ذهب [٢]

وهكذا يتأمل فى الطبيعة ويجلى محاسنها فى صورة حسية حيناً ، ومعنوية حيناً ، وجامعة بين الناحيتين حيناً ثالثاً . وكانت مظاهرها تعجبه إعجاباً شديداً وتستولى على خياله حتى ليتصور النار على هيئة بستان فيقول :

هلما بِكَـانُونَنَـا جـامحاً وقولا لموقِـدِنـا أجِّج
إلى أن ترى لهباً كالربا ض ، وناهيكَ من منظر مبهج !
ومن شُعَبٍ لازَوَرْدِيَّـةٍ تصاعد فى حالك مدجج
ومن عَذَبٍ فى اخضرار الحرير وفى صفرة التِّبر لم ينسج
إذا طربت قلت ريحانة ترنح عن ريحها السجسج

وحتى يجد فى فقد القمرىّ فاجعة ، فيرثيه بقصيدة تشعر بشدة وقع المصاب فى نفسه :

غدر الزمان وجار فى أحكامه والدهر عين الخائن الغدار

ومنها :

وفُجعتُ بالقُمرىّ فجعة ثاكل ففقدت منه أمتعَ السمار
لونُ الغمامة لونُهُ ومُناسب فى خَلقه الأقلام بالمنقار
ومطوَّق من صنع خِلقة ربه طوقين خلتهما من النوار
ولطالما استغنيت فى غَسَق الدجى بهديله عن مُطرب الأوتار

(و) وهناك ناحية نختم حديث الطبيعة فى شعر كشاجم بها ؛ وهى تغنيه بطبيعة مصر التى زارها وجال فى ربوعها ، وتعلق بمعاهدها الفاتنة وكان له بين أهلها إخوة يحن إليهم ويأسى للبعد عنهم [٣] .

وقد هتف بطبيعتها ، وإن أوجز ، هتافاً ينطق بالحب العميق ، والشعور الصادق ، واشتد

---

(١) الديوان : ص ٨٥ .
(٢) نهاية الأرب : ج ١١ ص ٢٣٠ .
(٣) الديوان : ص ٧٢ – ٧٣ .

به الطرب ، فهتف بالخمر كذلك لتتم عنده معانى الطرب كلها ، فتحدث عن الظرف وغنى صاحبه ، وإن كان فقيراً ، وهذه بضاعة مصريّة [١] ، ثم قال :

أما ترى مصر كيف جُمعت ... بها صنوف الرياض فى مجلس
السوسن الغض والبنفسج والـ ... ـورد وصُفر البهار والنرجس
كأنها الجنة التى جمعت ... ما تشتهيه العيون والأنفس . . إلخ

وإذا كان قد وصف فى هذه القطعة صور الجمال الطبيعى التى تستهوى العيون والنفوس ، فقد عبر عن شدة تعلقه بمصر وطبيعتها ، حين لعن العراق ، وأطنب فى حديث الهوى إلى مصر بقصيدته التى تعتبر نتاجاً خالصاً للطبيعة ، وقبساً مضيئاً من إلهامها :

شمس الضحى فى الغمام مستتره ... أم دمنة فى النقاب معتجره ؟ !

ومنها قوله :

حتى أرانى بمصر جارهم ... نَسْبى بها كلُّ غادةٍ خَضره
والنيلُ مستكملٌ زيادتَه ... مثل دروع الكماة منتثره
تغدو الزواريق فيه مُصعدة ... بنا وطوراً تروح مُنحدره

ثم لا ينسى أن يهتف بالخمر والطرب .

* * *

فكشاجم قد امتثل الثقافات الشعرية السابقة ، وعاش فى بيئات لها من المغريات الطبيعية حظ موفور ، وصادق شاعر الطبيعة المبدع الصنوبرى ، واتبع طريقة الأدب الواقعى التى تعنى بوصف الحياة المحسوسة ، ولا ترى بعين الغير ، وتهيأ له حظ موفور من عشق الطبيعة ففتن بها ماثلة أمامه ، ورأى فى فقد عزيز من موجوداتها فجيعة .وكان فنه فن عصره الذى يعنى بالبديع ، لكنه قد تخفف من حمله تخفيف الصنوبرى ، وإن لم يبلغ أسلوبه من السلاسة مبلغ أسلوب صاحبه ، لأن عاطفته لم تبلغ من القوة مبلغ عاطفته .

فهو شاعر للطبيعة تحس فيه روح الصنوبرى وتحليقه ، وترى أثر الاتباع فى فنه اتباعاً يضعف أمام الانفعال وصادق الشعور .

---

(١) الديوان ص ١٠٣ .

٥
السرى الرفاء

(ا) أما السرى بن أحمد الكندى الملقب بالرفاء ، فقد نشأ بالموصل حين كانت تابعة لسيف الدولة الحمدانى ، وكان يشتغل بالرفو والتطريز ، ثم لحق بسيف الدولة مادحاً ، فأقام بحلب حتى مات أميرها ، فانتقل إلى بغداد ، ومدح الوزير المهلبى وكبار الرجال فيها ؛ ولهذا سار شعره فى الشام والعراق وخراسان .

ويذكره المحدثون دائماً مع شعراء العراق وخراسان ، أخذاً للأمور من نهايتها ، وهذا النحو من الأخذ لا يستقيم فى باب الأدب ، وبخاصة فى موضوعنا شعر الطبيعة ، ذلك بأن حياته الأدبية قد اكتملت فى الشام ، كما كان راوية كشاجم وناسخ ديوانه ومتبع طريقته[1] . وقد ظل طوال حياته وثيق الصلة بالشام يتحدث عن علمها وأدبها ، وبراعة كتابها فى شعره ، ويهجو شعراءها الذين حالوا بينه وبين المقام فيها ، وبخاصة سعيد بن هشام ومحمد بن هشام الخالديان .

وبالموصل تكون ذوقه الطبيعى فى تلك البيئة المزهرة ، وفى حياته الخاصة التى مثلها بقوله :

لنا غرفة حَسُنَتْ منظرا وطابت لساكنها مخْبرا
ترى العينُ من تحتها روضةً ومن فوقها عارضاً مُمْطِرا
وينساب قدّامَها جدول كما ذعر الأيْمُ أو نُفِّرا

فى هذه البيئة نشأ وتقدم ، وفى كنف سيف الدولة بحلب تم مذهبه الشعرى ؛ فإذا اتصل من بعد بالمهلبى وسار شعره فى البيئة المشرقية فلا يعنى هذا أى تغيير فى فنه ، وبخاصة إذا كان ابتكار هذه البيئة محدوداً كما سنرى .

(ب) وكان مفتوناً ، ككشاجم ، بشعر أبى نواس وطريقته ، وقد سلك طريقه وعبر عن هذه الفتنة فى قوله يصف الهلال :

ألا عُد لى بباطية وكاس ورُع همى بإبريق وطاس

---

(١) اليتيمة : ج ٢ ص ١٠٤ .

وذَاكِرنى بشعر أبى فِراس على روضٍ كشعر أبى نُواس
وغيم مرهفاتُ البرق فيه عوارٍ والرياض به كواسى
ولاح لنا الهلال كشَطْرِ طوق على لبّات زرقاء اللباس

فشعر أبى نواس مثل ذلك الروض الذى يملك عليه نفسه ، ويحلو الشرب فى كنفه وفى كنف تلك المظاهر الطبيعية الخلابة ؛ من غيم مرهف البرق ، وهلال بدا فى السماء الزرقاء كلبات الحسناء تبدو من شطر الطوق فى لباسها الأزرق .

وهو صديق الشراب وصديق الروض يعوده دائماً ، ويتغنى بمحاسنه ، ويطرب للقائه :

وبساط ريحان كماء زبرجد عبثت بصفحته الجنوب فأرعدا
يشتاقه الشرب الكرام فكلما مرِضَ النسيمُ سعوا إليه عوّدا

فالخمر يهتف بها الجمال الطبيعى . وإذا تفتح الورد دعا بها ، مصطنعاً البراعة والحيلة فى نظمه ، ومعنيًّا بتصوير دقائق الحال وحسن البيان ، فقال :

هاتِ التى هى يوم البعث أوزار كالنار فى الحسن عُقبى شُربها النار
أما ترى الوردَ قد باح الربيعُ به من بعد مامَرّ حولٌ وهو إضمار
وكان فى خلَعٍ خُضرٍ فقد خُلعت إلا عُرًى أُغفلت منه وأزرار

وهو لا ريب قد استخدم الفن البديعى أتم استخدام ، لكن هذا الفن لا يثقل بل يخف حتى لا يشعر القارئ إلا بأن الشاعر دقيق الحس حسن البيان . تبدو دقة الحس فى هذه العرى والأزرار التى تخلفت ، ويبدو حسن البيان فى هذه الألوان من الطباق والجناس ومراعاة النظير الشفافة .

ويفتنه النرجس كذلك إذا أسفر عن حسنه ، فيدعو بالخمر [1] . فالطبيعة والخمر قد امتزجا فى نفسه أتم مزج وأصبحا توأمين ، يذكر أحدهما بالآخر ، بل أصبحا شيئاً واحداً ذا لفقين من الحسن ، يذكر حسن اللفق بحسن صاحبه ويتشاكل أمرهما . ولهذا يشبه الخمر بالتفاح ، ثم يشبه الشقائق بأقداح الخمر [2] . بل إن الخمر ليست إلا حلية لوجه الطبيعة الجميل ، وشمساً تزيد فى بهائه ، وتكشف عن محاسنه :

---

(١) راجع الأبيات التى أولها : هذا أوان ثمار ملـــــوك فاجن بالكأس الثارا
(٢) راجع الأبيات التى أولها : تل من الأيام ثارا وانتصر منها انتصاراً

أبا حسنٍ إن وجهَ الربيع جميل يُزان بحُسن العُقار
فإن الربيعَ نهارُ السرور والراح شمس لذاك النهار

(جـ) على أن هذا لا يصور حال الشاعر دائماً ، وإنما يصوره فى حالات خاصة هى حالات الشراب ، أو التخيل لجو الشراب ، أما فيما عدا ذلك فالطبيعة لها وجودها المستقل وفتنتها الذاتية .

فالورد يعطر الدنيا ، ويجمل شذاها ، ويلبس أجمل الحلل ، فيملأ قلبه وبصره :

كأنما خير فى روضة طرائف الكسوة فاختارها
وعطر الدنيا فطابت به لا عدمت دنياك عطارها
قد خلع القطر جلابيبه إلا شطاياها وأزرارها

ويفتنه السوسن فيمثله على طريقة ابن المعتز ، مع تأثر بخيال الصنوبرى :

كأنه ملاعق من فضة قد خط فيها نقط من عنبر

وتبدو الفتنة شديدة بالنرجس ، تبسم الحياة لقدومه ، ويصحبه الرعد ، ويتعلق به الشاعر فيرقبه على القرب والبعد ، ويمعن فى تصور حاله ثم يصورها (١) .

وهذه الصور الزهرية تفتنه مجتمعة كما تفتنه متفرقة ، بل هى فى حالة الاجتماع أشد فتنة . يصف الروض بما يحوطه من أسباب الترف الطبيعى : ربيع يحيى ، وبرق يقدح بأزناده ، وحمام يترنم ويترجح نشوان على أفنانه ، ونسيم يحل لائذاً بالأغصان ، ومتعطفاً على الأقحوان ، ومصافحاً الباقلاء ، ومحلّلاً من أزرار النور ، ومضفياً على الشقيق لونه الجذاب الفاتن ، ومنظره الأنيق (٢) .

ومن هذا قوله :

كأن حمام الروض نشوان كلما ترنم فى أغصانه وترجحا
ولاذ نسيم الروض من طول سيره حسيراً بأطراف الغصون مطلحاً

على أن الطبيعة تفتنه غامضة كما تفتنه واضحة ، فيطربه الغيم ، ويبلغ منه الطرب فيحيى فى روحه أمل الشباب وعزيمته ، غير آبه بالشيب الأبيض وسخريته من حاله (٣) .

---

(١) راجع الأبيات التى أولها : دونكها نرجسة الجسد على أفانين مسمع غرد
(٢) الديوان ؛ ط مصر سنة ١٣٥٥ هـ : ص ٧٣ - ٧٤ .
(٣) راجع قصيدته : يوم خلعت به عذارى فعريت من حلل الوقار

وكثيراً ما تغنى بالسحب وجودها ، وما يتراءى فيها من البرق ويصوت من الرعد ، وبكاء السماء ، وضحك الأرض . وقد أفاد فى هذا ممن سبقوه وامتاز بجمال العرض وشخصية الشعور .

وقد يطول نفسه فى هذه الأوصاف كما فى قصيدته .

جاءت مولعة الكواهل تختال صادقة المخائل

ومنها :

فالجو منها فى لظى والأرض منها فى مناهل
النور فى حلين مشتبهين من طل ووابل
يلقاك مختلف القلا ئد بين مؤتلف الغلائل
بدع كأطراف الدما لج والأساور والخلاخل
ما بين ألحان الحما م وبين ألحان الجداول

وقد يوجز كما فى أرجوزته :

سارية فى غسق الظلام دانية من قلل الأكام

لكنه فى الحالين يعبر عن هذه الفتنة الحالمة التى يحسها كبار الشعراء فى غوامض الأجواء .

(د) وعنى بالثلج ووصفه والتغنى بالطبيعة فى وقته ، على طريقة الصنوبرى وكشاجم من بعده . ويظهر أن هذا اللون من التغنى كان متكلفاً ؛ لا يحس فيه الشاعر بجمال ، وإنما يضرب على أوتار غيره .

تقرأ له هذه الأبيات فتحس أنه مفتون بمنظر الثلج ؛ يرى فيه جمالاً لا يقل عن جمال الزهور فى الأرض ، والسحاب فى الجو ، والنجم فى السماء :

تلألأت الربا لما علاها كأن على الربا أثوابَ آل
كأن ذرى الغصون لبسن منه حلى الكافور ربواتُ الحجال
تجول العين فيه وهو فيها كشُهْب الخيل رحن بلا جلال

وهذا اللون من التصوير طريف وإن تقدم نظير له . ولولا ما سبقه من ضجره وما تبعه من انصراف عن الثلج إلى الخمر ، لقلنا إن الشاعر يعبر عن شعور نفسى ، وإنه قد أضاف جديداً يستحق التنويه به فى هذا الباب .

فهو يسبق هذه الأبيات بقوله :

سكنت إلى الرحيل وكيف أثوى بأرض لم تكن ملقى رحال ؟

ألم بربعها حَذراً فألقى ملم الشيب فى لمم الجبال

وإذا فهذه الديار الثلجية لا تستهويه ، وإنما يلم بها حذراً ، ثم يذكر ملم الشيب ولا يجمله تجميل من سبقوه . كما ينصرف بعد ذلك إلى الخمر فيتغنى بساقيها [١] دون أن يربط بين الجالين . فهذا التنقل بين أجواء مختلفة لا رابط بينها يدل على أن الشاعر لا يصدر عن إحساس صادق ، وإنما يصدر عن المحاكاة الفنية .

وقد كرر تشبيه الثلج بالكافور فى مقطوعة أخرى تحدث فيها عن الدن والريحان والمزملة والخيش ، وذكر الثلج ولم يقف عنده . [٢]

كما أورد هذا التشبيه فى مقطوعة ثالثة يستهدى فيها الخمر ، ولم يطلب فى هذا المقام هياماً بمنظر الثلج الذى يحلو فيه الطرب ، وإنما توسلا بشدته ، فدل على مدى تعلقه بهذا المنظر الطبيعى الذى جمله الصنوبرى وكشاجم [٣] .

(هـ) على أنه قد امتاز بلون طريف من ألوان التغنى بالطبيعة ، وهو وصف الأنهار والمياه . ولم يذكر الماء من أجل الوطن ونهره كالصنوبرى ، وإنما ذكره من أجل الفتنة الطبيعية المطلقة . ولم يكن هذا غريباً من شاعر وصف بيته بأن الأنهار تجرى من تحته .

وهذا التعلق بالماء يتجلى على أتمه حين يصف الغدير بأنه مستودع لعطر الزهر ، وموضع عناية الريح ترقرقه وتخططه ، وأن ركبانه يعودون من المصافحة لعذب صفحتيه بأيد ندية عطرة ، فيقول فى نظم يلائم مصدره :

رب صاف رقرقته الـ ـريح فى متن صفات
عبق من جر أذيا ل رياح عقبات
صافح الركبان منه صفحتى عذب فرات
أودعته الريح ما استو دعها زهر النبات
فانثنوا عنه بأيد خضرات عطرات

وما دام شاعراً ذواقة للخمر ، هائماً بالشراب ، يتخير لمجلسه أبهى الأماكن وأبهجها ويستهويه النهر بمائه الصافى ، فإنه يصطبح بالخمر على النهر تحفه أشجار الليمون ، فيبدو النهر مع

---

(١) الديوان : ص ٢٣٠ .
(٢) الديوان : ص ٢٢٠ .
(٣) الديوان : ص ١٩٨ .

الثمر كالفلك مع نجومه ، ويتراءى لعينه الشاعرة كأكر فضية شابها تبر .

ويفتنه كذلك ما يتصل بالنهر من جسر وسفن ودواليب ، فيتمثل للسفن صورة فى النهار ، كما يتخيل للجسر صورة فى الليل . وفى هذا معنى التعلق الذى يدعو إلى التأمل فى الأوقات المختلفة . ويصور الدولاب يدور فتلقى كيزانه بالماء « فلكا تنقض أنجمه » ، كما يصوره صوراً أخرى (١) .

وقد يصف السفينة أثناء الرحيل إلى الممدوح ، كما كان القدماء يصفون الناقة . ومن هذا ما جاء فى قصيدته :

أتكتم أسرار الهوى أم تذيعها وتحفظها بعد النوى أم تضيعها (٢)

وقد أقام لوناً من المقابلة الخفية فى هذا الوصف بين السفينة والناقة ؛ فذكر أن الريح حاديها ، وأنها لم تتأثر بطول السفر ، ولم تتحرك نسوعها من فوق ظهرها ، وصور صلتها بالموج فى سيرها ليلا ونهاراً تصوير إلف ومحبّة .

ووجد عنده شىء طريف آخر يتصل بالأنهار ، وهو صيد السمك ، ووصف الشباك والأسماك .

وإذا كان القدماء يبكرون بالفرس لصيد الوحش ، وإذا كان المحدثون يزيدون التبكير بالكلاب والبازى وما إليها ، فإنه يبكر لصيد السمك ويصطنع الرجز كذلك .وهو فى هذا التبكير ممتلئ سروراً ، يفتنه طلوع الفجر ، والريح وما تنشر من ريا الزهور ، ومنظر الطبيعة الفاتن فى ذلك الوقت . يصف الشبكة ، ويصف السماء ، وينتهى إلى أن هذا اللون من الصيد هو المتاع الحق ، لا صيد الظباء . وهو فى جميع هذه الأوصاف مبدع ، متعلق بهذا اللون من ألوان اللذة الطبيعية :

قد أغتدى نشوان من خمر الكرى أسحب بردىّ على برد الثرى
والصيد حمل بين أحشاء الدجى والريح كالراح نأى عنها القذى
ينم ريّاها على زهر الربى بذات أحداق ترى ما لا يرى

وبعد أن يصف الشبكة وإلقاءها فى الماء يصف السمك :

تضحك عن مثل صغيرات المدى كأنها عقد لآل قد وهى

(١) الديوان : ص ٤٠ ، ١٥١ .
(٢) الديوان : ص ١٦٤ ، ١٦٦ .

أو عن نقى البطن موشى القرى تومض فيها كالحمام المنتضى
لم يدر لما قصرت عنه الخطا أظله منها رداء أم ردى
فذلك اللذات لا صيد الطلا . . .

وهذا اللون من وصف السمك وتشبيهه بالمدى أو بصغار الخناجر شائع فى شعره . على أنه قد يتحلل من الرجز فى وصف الصيد ، ويذكر مع صيد السمك صيد الطير بالفخاخ ، ويصف السمك والطير وصفاً بديعاً . والذى يستحق الذكر أنه يعرض هذا الوصف فى جو الطبيعة الفاتن . وقد مر مثل لهذا الجو فى القطعة السابقة ، على أن هذا التصوير قد يبدو على أتمه فيستفيض الشاعر فيه ، كما فى قصيدته :

وطيب النشر عبق بريق الغيث شرق

وقد يصف على هذا النحو صائد السمك بشبكته وسمكه مصطنعاً الرجز فى وصفه . ومثل هذا ما جاء فى أرجوزته (١) .

وباكر لغيره ما يرزق مُثْرٍ به طوراً وطوراً مخفق

ويظهر أن السرى الوفاء كان مغرماً بهذا اللون من الصيد ، فقد عودنا هذا الشاعر العناية بمشاهداته والتعبير عن وسطه وشعوره . ومن آيات هذا أرجوزته :

لنا مغنٍّ حسن الغناء وقهوة ضاحكة الإناء

فقد وصف فيها ، كما وصف فى غيرها من الأراجيز والقصائد ، الجوَّ الطبيعى المحيط به . ومن طريف ما جاء فى هذه الأرجوزة وصفه للخطاف الذى بنى بيتاً بأعلى غرفته ؛ فهذا الخطاف يستهويه بمسكنه ، وحركاته فى الأرض وفى السماء ، وشكله وغنائه .

٦

فالسرى الرفاء قد ورث التراث الحديث فى شعر الطبيعة ، وتهيأ له ، من البيئة وجمالها والفتنة بالطبيعة والعيش بين الماء والزهر والطير ، ما تهيأ لسابقيه ؛ فصور الطبيعة كما صوروها ، وزاد هذا اللون الطريف من وصف الماء والصيد ، وشاركهم فى سلاسة الأسلوب والأخذ بالبديع فى غير تكلف ظاهر .

---

(١) الديوان : ص ٦ ، ١٧٦ ، ٢٠٤ .

وكان أحد الشعراء الذين نهض بهم شعر الطبيعة لهذا العصر ، إذ اعتمدوا على وصف الحياة كما يرونها ووجدوا من الحكام تشجيعاً ، أو على الأقل لم يجدوا إنكاراً وتجهماً ؛ فكان هذا الشعر يقدم بين يدى المدح ، كما كان القدماء يقدمون صورهم البدوية .

وبعد ، فما هى مميزات شعر الطبيعة فى الشام ؟

ذكر أبو الفرج الأصبهانى المذهب الشامىّ فى الشعر ، وإن لم يبينه . وذكر غيره من قدماء الكتاب والنقاد طريقة الشآمين . ولعل أحداً لم يفصل القول فى هذا المذهب ما فصل الثعالبى فى يتيمته [1] . وهو يذهب إلى أن شعراء الشام أشعر من شعراء العراق . ويعلل لهذا بسلامة اللسان التى يكفلها وطنهم القريب من خطط العرب ، البعيد عن بلاد العجم . . وحين يتحدث عنهم يذكر الجزالة والعذوبة ، والفصاحة والسلاسة والبدائع ، ومحاسن الألفاظ ، والطرائف الشآمية ، واللطائف الحلبية . وكأنه يتصور هذه الطريقة على أنها سهولة اللفظ ، والتأنق فى الأداء ، والاحتيال فى إيراد المعانى اللطيفة ، والبراعة فى التصوير .

والواقع أن هذه المميزات واضحة كل الوضوح فى أسلوبهم ، فهم يأخذون بالطريقة الحديثة البديعية ، وينأون عن الغريب ، ويقصدون إلى السهل ، بل إلى المبتذل أحياناً ، ثم لا تثقل هذه الطريقة أسلوبهم بمتراكم الحلى اللفظية . ولعل منشأ هذا أنهم فى بيئة تتكلم العربية وتتذوقها ، وأنهم يعتمدون على الوراثة والبيئة اعتمادهم على الثقافة ، بينما يعتمد غيرهم فى الأقاليم الفارسية على الثقافة وحدها .

أما من ناحية الموضوع فقد صوروا بيئتهم أكمل تصوير ؛ صوروها بنرجسها ووردها وماثها ونضارتها وثلجها . ولجبال بيئتهم فتنوا بالطبيعة الجميلة الصافية ، وإذا زمجرت الطبيعة أو قست فإنهم يزمجرون كذلك لها ويقسون فى أشعارهم عليها ، وإن لم يمنع هذا بعضهم من أن يرى فى غموض الطبيعة مباهج وفتنا . ومن هنا ظهرت فى أشعارهم نزعة الضياء والألوان والبريق .

وأحاديث الهوى والحب الرقيق وعدم التعصب الدينى تظهر فى هذه البيئة كذلك ، ولهذا بدت فى أشعارهم ميوعة العاطفة ، والمبالغة فى اللذائذ والدعوة إليها ، والهتاف الصارخ بالخمر . وقد يقال إنهم ورثوا بعض هذه الألوان ممن سبقوهم ، لكن البيئة توحى بالاختيار ، كما توحى بالابتكار ، ومن هنا اختاروا شعر أبى نواس وفتنوا به أكثر مما فتنوا بغيره .

وشعرهم مرآة عقولهم التى تبهرها المظاهر الجميلة ، ولا تعنى بالبحث فى دقائق المعانى

(١) اليتيمة : ج ١ ص ١ - ١٠ .

والفلسفات ؛ يُعجب روحَ القارئ وقلبه قبل أن يؤدى للعقل حقه من التأمل العميق ، والنظر البعيد فى كنه الوجود .

لكنهم قد استطاعوا بوسائلهم أن يجملوا الطبيعة فوق جمالها ، وأن يصوروها فى صورة بديعة مشرقة ، وأن ينطلقوا مع سجيتهم ، فيأتوا بالمعنى البارع والصورة الفاتنة ، ويبعثوا فى موجودات الطبيعة حياة قوية ، ونشاطاً عظيماً ، يبعثان على التعلق والهيام بها .

وإن شعراً يؤدى هذا الغرض لجدير بالذكر ، وحقيق بالخلود .

الفصل الثانى

فى الأقاليم الشرقية

١

إذا كانت الأقاليم الغربية من الإمبراطورية الإسلامية قد سلمت للعرب ؛ من حمدانيين بسوريا وبلاد ماين النهرين ، وأمويين بالأندلس ، وفاطميين بمصر — فإن الأقاليم الشرقية قد وقعت فى أيدى الفرس الذين حكموا فارس والعراق وخراسان من الطاهريين والصفاريين والسامانيين والبويهيين ، وفى أيدى الترك الغزنويين الذين حكموا أفغانستان والهند . وانتهى أمر هذه الأقاليم ، حول منتصف القرن الرابع ، بأن يستولى الديلم البويهيون على غرب فارس والعراق ، والترك الغزنويون على ما يلى ذلك من الأقاليم الشرقية ، والعرب الفاطميون على مصر والشام والحجاز من الأقاليم الغربية . وبهذا يخضع المسلمون للسلطان التركى فى الشرق ، وللسلطان العربى فى الغرب ، وللسلطان الفارسى فى الوسط ، ويظل الأمر كذلك إلى منتصف القرن الخامس (٤٤٧ هـ) ، إذ يستولى السلجوقيون على بغداد ، ويقصون البويهيين عنها ، ثم يغلب التتارُ الجميع على أمرهم فى منتصف القرن السابع ويستولون على بغداد (٦٥٦ هـ) .

وحين أتت الأسرة السامانية (٢٦١ — ٣٨٩ هـ) ، كان الفرس قد بدءوا إحياء آدابهم الفارسية ، فشجعت هذا الاتجاه ، وظهر أيامها الشعراء الفارسيون : الرودكى ، والدقيقى ، والفردوسى ، ونقلت بعض الآثار العربية إلى الفارسية ، لكنها لم تنس التشجيع لأصحاب العربية من العلماء والشعراء والكتاب .

وكثير من آل بويه (٣٢٠ — ٤٤٧ هـ) شعراء ، حفظت اليتيمة طرفاً من أشعارهم يدل على نصيب متواضع فى هذا الفن ؛ كما امتاز وزراء هذه الدولة فى الأدب ، ومنهم ابن العميد والصاحب بن عباد ؛ وعنيت عناية كبيرة بالأدب والشعر العربيين . لكن عهدها لم يبرأ من النزعات الفارسية ؛ فكان من الشعراء من ينظم الأمثال الفارسية بالعربية ، ومن الأدباء من

ينحو فى الكتابة المنحى الأعجمى ، وإن ظل سائر شعراء العربية ، وثيق الصلة بالمنهج العربى مغالين فى اتباعه .

أما الدولة الغزنوية (٣٥١ – ٥٨٢ هـ) فقد سارت على نهج السامانيين فى تشجيع الأدب الفارسى مع أنها تركية ، ذلك بأن الترك لم يكن لهم أدب يعملون لسيرورته ، وكانوا فى حاجة إلى تملق الشعب الفارسى كى يوطدوا ملكهم . وفى عصرهم أتم الفردوسىّ ما نظمه الدقيقىّ من الشاهنامة ، وإن لم يلق ما هو جدير به من التكريم . وإذا كان الأدب الفارسى قد ازدهر بزعامة الفردوسى ، فإن التأليف العربى كانت له مكانة كبرى بفضل العتبى والبيرونى ومن إليهما ، كما وجد الشعر العربى فى كنف هذه الدولة من يمضون به فى سبيله .

وكيفما كان الأمر فقد أقبل الشرقيون على صنوف العلم العربى يستذكرونها ، وعلى الكتابة والشعر العربيين يتفننون فى تجويدهما ؛ كما أنه لم يكن هناك من فرق ، فى المنزع الأدبى القائم على تشجيع الأدب الفارسى وإيواء الشعر العربى ، بين الترك والفرس . وظل الحال كذلك نحو قرنين ، ثم انتهى الأمر بغلبة اللغة الفارسية وضياع العربية ، وانقراض العالمين بها على تتابع الأيام ورجوع تلك البلاد أعجمية كما كانت .

٢

وفى هذا الجو ترددت فى شعر الطبيعة نغمات المحدثين التى طالعناها فى دور الانتقال وفى دور النهضة الشآمية ، كما ترددت نغمات القدماء التى استمعنا إليها من قبل .

وها هى ذى نغمات المحدثين كما غناها شعراء المشرق :

(١) **الطبيعة والخمر :**

لقد تغنى شعراء المشرق بالطبيعة فى جو الخمر ، كما تغنى بها المحدثون . فأبو الحسن الجوهرى يدعوه جو الصباح إلى الخلاعة ، ويرى الطبيعة فيه تحكى الهوى والطرب :

ياسقيط الندى على الأقحوان شأنك اليوم فى الصبوح وشأنى
سحر مدنف وجو عليل وصباح يميل كالنشوان

وأبو إسحاق الصابى يرى فى كوكب الإصباح وصياح الديك إيذاناً بالشراب ، ويتخيل الخمر فى جو الطبيعة فيقول :

كوكب الإصباح لاحا طالعاً والديك صاحا
فاسقنيها قهوة تأ سو من الهم جراحا
ذات نشر كنسيم الرو ض غب القطر فاحا

والحسن بن أحمد الحجاج يزيد فيرى الخمر فى جو الطبيعة رشاداً كل الرشاد ، ويرى أن تركها لا يجمل ، فقال بعد حديث الصباح والزهر والروض والسحاب :

إن صحوى ، وماءُ دجلة يجرى تحت غيم يصوبُ ، غيرُ صواب

ولم يكن الصباح وحده هو الذى يستهويهم ، وإنما كان الليل بنجومه يستهويهم كما استهوى من قبلهم . فالشريف العقيلى يطرب لمرآى البدر والنجوم ويستخفه الطرب ، فينادى بالخمر غير آبه لعاذل ولا لائم (١) . وابن لَنْكك تمتع فى جو الخمر بالطبيعة المزهرة تشبه بما تألق فيها من النُّور السماء بنجومها (٢) . وشرب ابن سكرة الخمر فى استقبال الربيع (٣) .

وصور أبو الحسن الغويرى الربيع بزهره وطيره ومائه ، ونادى الصاحب بالخمر فقال :

أيها الصاحب الربيع تجلّى فى رياض تَحَارُ فيه العقول
نرجسٌ ناضر وأحمر ورد وشقيق يزينه التكحيل
وغصون تجر أذيال نَوْر فى حواشى جداول وتميل
للزرازير فى خلال الأزاهير صفير وللحمام هديل

ولم تكن الطبيعة المشرقة بالنجوم والزهر هى التى تطربهم فقط ، وإنما أطربتهم كذلك الطبيعة الغامضة فى جو القطر ، وعبر عز الدين بن معز الدولة عن هذا الطرب فى قوله :

اشرب على قطر السماء القاطر فى صحن دجلة واعص زجر الزاجر

كما نصح أبو الحسن بن سكرة بهذا ، وجمع ألوان الفتنة فى الطبيعة والحب ، فقال :

اشرب فلليوم فضل لو علمت به بادرت للهو واستعجلت بالطرب
ورد الخدود وورد الروض قد جمعا والغيم مبتسم والشمس فى الحجب

وفى هذه الصور الخمرية وغيرها لا نرى كثيراً من الجدة ، وهى أقرب فى جزالة اللفظ إلى الشعر فى دور الانتقال .

---

(١) راجع أبياته التى أولها : لا تسمعن إلى العذول وسقى مشمولة من خمرة الباذينج
(٢) راجع أبياته التى أولها : وروض عبقرى الوشى غض يشاكل حين زخرف بالشقيق
(٣) راجع أبياته التى أولها : واف الربيع وقد ألفت به دور السقاة بداثر النخب

(ب) الروضيات :

ونالت الرياض عنايتهم ، فوصفوها فى معرض المدح ، كما وصفوها مستقلة . وطريقتهم فى وصفها وثيقة الصلة بطريقة المحدثين الذين سبقوهم . لكننا نحس فيها تأملاً أعظم ، وعناية أكبر بالناحية المعنوية فى التصوير ، مع الأخذ بحظ من الناحية الشكلية . والهيام بالرياض ، والإفادة من معانى السابقين ، وحسن العرض ، والمشاركة فى البديع – يظهر كل ذلك فى وصف الروضة لسعيد بن أحمد الطبرى . ومنه :

أروضتنا ، سقاك الله ! هل لى إلى أفياء دوحك من مصير !
وكم فى فرع أثلك من صفير وكم فى أصل أثلك من زفير !
وشدوٍ ترقص الأعضاء منه وَبَمٌّ لا يمل عراك زير
فيالك روضة راعت فراحت رضى الأبصار من نَور ونُور !

فهو يعدد مفاتن الروض التى تطرب السمع وتملأ البصر وتريح النفس ، ويعرض ألوان الحياة التى يزخر بها فى غير عناية بتصوير الشكل .

أما أبو الحسن الجوهرى فإنه يصف الروض فى عرس يتحلى فيه الدهر والجو والشمس والريح والغيث ، ويؤلف هذه الصورة المعقدة :

الدهر مخبره مسك ومنظره والروض مطرفه ورد ومعجره
والجو يفتح جفناً فى محاسنه من الندى وأديم الغيث محجره
يسعى الشمال بَنَدٍ فى جوانبه من النسيم وحمل الشمس مجمره

ونحو هذا أوصاف أبى المظفر الأبيوردى[1] .

على أن العناية التقليدية بالشكل تبدو كذلك فى شعرهم . نحو قول عبد الله الداودى الهروى :

أما شاقتك روضة دستجرد كعقد أو كوشى أو كبرد
تطير فراشها بيضاً وحمراً كريح طيّرت أوراق ورد

فهذا يذكر بأوصاف ابن المعتز . ولعل الشاعر الفقيه كان يقصد إلى البراعة فى النظم حين قدم هذه الصورة .

---

(١) راجع الأبيات التى أولها :

ويوم طويتنا أبرديه بروضة يـنشر فيها الأنجمى المعضد

ومن هذا قول ابن سكرة :

أما ترى الروضة قد نورت وظاهر الروضة قد أعشبا
كأنما الأرض سماء لنا نقطف منها كوكباً كوكبا

ويبالغ أبو بكر الأرجانى فى تصوير الفتنة الحسية للروض فى مقام الغزل[1] .

ومثله تصوير السلامى لشعب بوان ، إذ صور الأغصان واختلاف حسنها بين نازع قرط ولابسٍ شنفا ، وما يصنع الريح والشمس والماء بالشِّعب من أشكال ، وما يعتوره من عارض وبارق ، وما يهتف به من طائر ، وما ينتشر فى روضه من ياقوت وفى مائه من در[2] . وتبدو طرافة كذلك فى أوصاف التنوخى للرياض مثل قوله :

أما ترى الروض قد وافاك مبتسماً ومدّ نحو الندامى للسلام يدا
فأخضر ناضر فى أبيض يقق وأصفر فاقع فى أحمر نضدا
مثل الرقيب بدا للعاشقين ضحى فاحمرّ ذا خجلا واصفرّ ذا كمدا

والطرافة ليست فى البيت الثانى فقد سلك فيه مذهب ابن المعتز ، وإنما هى فى البيت الأول إذ تشتد حياة الروض ويعظم حسنه حتى يرحب بالقادم ويوافى مسلماً ، وفى البيت الثالث حين يشبه حال الروض بحال الإنسان فى مواقف يحمر فيها العاشق ويصفر العاذل أو تجمع بين معانى الطبيعة ومعانى الهوى ، جاعلاً ما خفى فى الثانية أشد وضوحاً من الأولى . ومن ذلك قوله فى وصف روض ، بعد أن ذكر تجميل الثريا والغيث له :

أقحوان معانق لشقيق كثغور تعض ورد الخدود
وعيون من نرجس تتراءى كعيون موصوله التشهيد
وكأن الشقيق حين تبدى ظلمة الصدغ فى خدود الغيد
وكأن الندى عليها دموع فى جفون مفجوعة بفقيد

وهذا اللون من التشبيه دليل التأمل والنظر فى الحالات النفسية المختلفة التى تظهر آثارها على الملامح ، كما أنه دليل على شدة تتبع الشاعر لهذه الحالات ، حتى أصبحت من الوضوح بحيث تشبه بها أوضح المظاهر الطبيعية ، وأشدها بريقاً ولمعاناً .

---

(١) راجع الأبيات التى أولها :

ماروضة أضحكت صبحاً مباسمها دموع قطر عليها الليل ينسفك

(٢) نهاية الأرب : ج ١١ ص ٢٥٩– ٢٦٠ .

وليس الأمر مقصورًا على الزهر عند التنوخى ، بل يأتى فى مظاهر الطبيعة المختلفة من ماء وريح وثلج ونجوم وغيرها .

وإذا اتصل هذا بالتفكير الفلسفى القائم على التأمل فى النفس ومعرفة أحوالها ، فإنه يتصل كذلك بالصنعة النظمية التى تؤدى إلى التفنن فى طرق الأداء (١) .

وهذه الصنعة قد أنتجت شيئاً آخر لا نقف عنده ، وإنما نشير إليه ؛ وهو الألغاز الروضية . وقد تفنن شعراء تلك البيئة فى الألغاز تفنناً ولم تقتصر على الرياض ، وإنما شملت ما عداها من مظاهر الطبيعة الصامتة والحية ، بل تجاوزتها إلى غيرها كذلك . وإذا اتصلت هذه الألوان برياضة الذهن والتفنن فى النظم واللهو ، فإنها لا تتصل بالطبيعة . ولعلها لم تبلغ عند أحد ما بلغت عند مهيار ؛ فإن الطبيعة عنده ، عدا الهتاف بالمعانى البدوية القديمة ، لم ترد إلا على هذا النحو (٢) .

فالروضيات عند المشرقيين قد سلكت طريق السابقين ، مع تأثر بالتقليد الفلسفى ، وتجويد فى النظم أضفى على المعانى لوناً من الطرافة ، وعلى الأسلوب لوناً من الجمود .

(جـ) الثلجيات :

ولم يتغنوا بالحدائق المثمرة والرياض فقط ، وإنما تغنوا كذلك بالثلج وبهاء الطبيعة إبّانه ؛ وهنفوا بالخمر فى وجوه الزهر :

الورد بين مضمّخ ومضرّج ... والزهر بين مكلّل ومتوّج
والثلج يهبط كالنثار فقم بنا ... نلتذ بابنة كرمة لم تمزج
طلع البَهار ولاح نور شقائق ... وبدت سطور الورد تلو بنفسج
فكأن يومك فى غلالة فضة ... والنبت من ذهب على فيروزج

---

(١) اليتيمة : ج ١ ص ٢٣٨ و٢٣٩ و٣١٣ و٣٤٦ و٣٨٠ – ٣٨٢ ، ج ٣ ص ٢٠ و٢٤ و٧٣٧ و٢٣٨ و٢٦٠ – ٢٦٦ و٢٧٥ و٣٠٤ . ج ٤ ص ٤٠ و٤٨ و٥٠ – ٥١ و١٧٢ و١٧٨ و٣١٩ و٣٤١ و٣٤٤ ، ونهاية الأرب : ج ١١ ص ٣٧ – ٤٠ و٦٤ و٩٢ و١٦٧ و١٧٠ و١٩٠ – ٢٠٠ و٢١٨ و٢٢١ – ٢٢٥ و٢٤١ و٢٤٤ و٢٤٥ و٢٥٠ – ٢٥٦ و٢٦١ و٢٦٤ و٢٦٥ و٢٧٤ و٢٧٧ – ٢٧٩ و٢٨٥ .

(٢) ديوان مهيار ، ط دار الكتب : ج ١ ص ٩٨ و١٥٢ و٣٤٤ ، وج ٢ ص ٧٥ و١٢٢ و١٧٨ و٢٨٧ ، وج ٣ ص ١١٧ و١٢٤ ، وج ٤ ص ١٨٨ .

ولا ريب أن الشاعر كان مقلداً ، وأنه قد أحال حين جمع بين صفات الربيع وصفات الشتاء ، وما أكثر ما يحيل المقلدون فى جميع الآداب !

أما الذى تفنن فى الثلجيات فهو الصاحب بن عباد . ومنها قوله :

أقبل الثلج فانبسط للسرور ولشرب الكبير بعد الصغير
أقبل الجو فى غلائل نور وتهادى بلؤلؤ منثور
فكأنما السماء صاهرت الأر ض فصار النثار من كافور

وقد خلق هذا الجو السارّ فى مقام التصوير للثلج ، جو العرس ينثر فيه الثلج بدل الدراهم ، وربط بين الطبيعة فى السماء والطبيعة فى الأرض بهذا الرباط الوثيق . ولا جرم أن أصول هذه الصورة وغيرها قديمة ، وأن أبا بكر الخوارزمى كان على حق حين قال ، إذ سمع ثلجيات ابن عباد : «كل هذه الثلجيات عيال على قول الصنوبرى :

ذهب كئوسك يا غلا م فإنه يوم مفضفض[1]

ويشترك مع ابن عباد فى وصف الثلج أبو الفضل الميكالى والتنوخى وصَرَّدُر وغيرهم .

لكن الثلجيات فى المشرق كانت فى جملتها صدى لثلجيات الشام فى دور النهضة ، وإن تأثرت بالجو والأسلوب المشرقيين ، كما تأثرت الروضيات .

(د) المـــاء :

وكان لهم حظ من اجتلاء محاسن الطبيعة مصورة فى الماء ينساب فى الأنهار والغدران ، ويحفه الشجر والزهر ، ويخطر النسيم على صفحته ، وتتراءى فيه السماء .

وقد تفنن التنوخى فى وصف النهر ؛ ينسى فيه الهموم ، ويطرب لمرآه ومرأى ما يحف به من المعاهد والجنات ، وتمتلىء بمعانيه نفسه ، ومن ذلك قوله .

أحببْ إلىّ بنهر معقل الذى فيه لقلبى من همومى معقل

وهذا البيت ينطق بامتزاج نفس الشاعر بالطبيعة ؛ يصادقها ويلوذ بها من الآلام . إنه يعشقها :

عذب إذا ما عبّ فيه ناهل فكأنه فى ريق حِبٍّ ينهل

(١) اليتيمة : ج ٣ ص ٢٣٧ .

وتفتن بصره :

وكأنها ياقوتة أو أعين زرق تلائم بينها وتواصل

وتشجى أذنه :

غنّت قيان الطير فى أرجائها هزجا يقلّ له الثقيل الأول

وتثير قلبه الطروب للحب :

وتعانقت تلك الغصون فأذكرت يوم الوداع وغيرهم يترحل

وتبعث خياله المتعلق بالهوى :

فمدلّج ومرشّح ومدثّر ومعمّد ومحبّر ومهلّل

فتخال ذا عيناً وذا ثغراً وذا خدًّا يُعضّض مرة ويُقبّلُ

وحق لقصيدة تجمع هذه المعانى وأمثالها «أن يفضلها الصاحب على سائر شعر التنوخى ، ويرى أنها من أمهات قلائده» (١) .

وسار السلامى على نهج التنوخى وردد هيامه بنهر معقل ، وهو من أنهار البصرة ، وزاد شرحاً ، فذكر الفتنة بالمركب والزورق الأسودين كأنهما النبيذ والنديم الأسودان ، وقرر أن الحياة المثلى بين الماء والخمر ، ومثل طربه بالماء وبما يتراءى فيه وما يحفه من الألوان (٢) .

وقد جمع الماء عنده فتنة الأرض والسماء ، وتعلقت به النفس والعين . ونحو هذا مما تبدو فيه الصلة بين جمال السماء وجمال الأرض قوله :

والبدر فى أفق السماء كروضة فيها غدير

وقوله :

تَرَى قد أعاد الليلُ مسكاً عبيرَه وماءً أعاد البدرُ فضّتَه تبراً

وليست هذه الفتنة بغريبة على شاعر نشأ فى بغداد وتعلق بنهرها دجلة :

وبغداد بحر ساحلاه جواهر ودجلة روض طُرّتاه شقيق

وقد صار ياقوتاً حصاها وعنبراً ثراها وأمسى الماء وهو رحيق

وعلى عبد العزيز الجرجانى قد اكتسب كذلك من مقامه ببغداد هياماً بالماء وإن مثّله على

---

(١) اليتيمة : ج ٣ ص ٣١٣- ٣١٤ .

(٢) راجع قصيدته :

أحن إلى لقاء أبى على ويأبى أن يحن إلى جوارى

نحو آخر ، فخلط فى انتخاب المواد ، لكنه أبدع فى الملاءمة بينها ، وفى تأليف جو واحد يسودها . اختار من المواد القاسىَ العنيف : الرعد ، والريح الضارية ، والسيوف ، والأدرع ؛ واللينَ الرقيقَ : خرير الماء ، والمزنة ، والبدر ، والتذهيب ، والأنفاس ؛ ثم ذكر صفاء العيش وطيبه بعد هذا الخليط الذى أحكم مزجه ، فقال :

كأن خرير الماء فى جنباتها ... رعود تلقت مزنة تستريعها
إذا صربتها الريح وانبسطت لها ... ملاءة بدر فصلتها وشيعها
رأيت سيوفاً بين أثناء أدرع ... مذهبة يغشى العيون لميعها
فمن صنعة البدر المنير تصولها ... ومن نسج أنفاس الرياح دروعها
صفا عيشنا فيها وكادت لطيبها ... تمازجها الأرواح لو تستطيعها

ونجح الطغرائى فى تأليف جوّ منسق من مثل هذه المواد كذلك ، حين صور الغدير فاتناً عاشقاً وديعاً تلوذ به الشدة فتلين ، لا يعتدى وإنما يتقى العدوان ، ويرطب ببرودته ، ويخطف الأبصار بنوره[1] .

فالفتنة بالماء تبدو فى شعر المشرق كما بدت فى شعر الشام ، ويتميز الأسلوب هنا ، شأنه فى فنون الشعر لهذه البيئة بالجزالة ، والتخفف مع البديع ، وزيادة التأمل الشعرى .

(هـ) الطبيعة الحية :

وقد رأينا فيما سبق تغنياً بالطيور ، وطرباً بأصواتها أثناء وصف الرياض ، لكن الطبيعة الحية قد نالت ، كما نالت فى البيئة الشآمية أيضاً ، قدراً أعظم من التغنى بها مندرجة فى المجموع الطبيعى الفاتن .

وقد عنى أبو إسحاق الصابى بالطير ، فوصف الببغاء والخطاف والقبجة وغيرها ، وأطنب فى أوصافها ، ولعل لصلته بأبى الفرج الببغاء ما يفسر هذه العناية ، فقد كان حريصاً على الظفر بإعجابه . وهو فى هذه الأوصاف يعنى بالشكل . ومن ذلك قوله فى الخطاف :

كأن بها حُزناً وقد لبست له ... حداداً وأذرت من مدامعها علق
تَصِيفُ لدينا ثم تشتو بأرضها ... فى كل عام نلتقى ثم نفترق

(١) راجع قصيدته : عجباً إلى الجزع الذى مد فى ... أرجائه الغيم بساط الزهر .

وقوله فى الببغاء :

تميس فى حلتها الخضراء مثل الفتاة الغادة العذراء
خريدة خدورها الأقفاص ليس لها من حبسها خلاص

على أن هذه الأبيات تدل كذلك على فتنته بالطير قد يفصح عنها قوله فى الببغاء :

نحبسها ومالها من ذنب وإنما نحبسها للحب
تلك التى قلبى بها مشغوف كنّيت عنها واسمها معروف

ولا جرم أن هذه الألوان وثيقة الصلة بالبيئة الشآمية ، يدل على ذلك إرساله بعضها إلى أبى الفرج الببغاء ، ومبالغته فى إطراء الببغاء من اجل أنه لقب أبى الفرج . ويظهر التقليد عند شعراء هذه البيئة فى أوصافهم للطيور والبزاة والدجاج والديكة وغيرها . لكن هذه الألوان فى البيئة المقلدة تعتبر لا ريب شيئاً جديراً بالذكر بل بالثناء .

(و) السماء :

وكان طبيعيًّا فى هذه البيئة الأعجمية أن يصفوا السماء والكواكب والنجوم . فعناية الفرس بالتنجيم قديمة ، وتصديقهم لأقوال المنجمين مأثور ، وأهل العراق منذ عصر بابل معنيون بالسماء ، وماضى الشعر العربى فى هذا الباب حافل ، وقد استفادوا من هذا الماضى أبعده وأقربه وما بينهما . أخذوا معنى امرئ القيس فى طول الليل وثبات نجوم السماء ، فنسجوا على منواله ، وصبغوه بصبغة البيئة والزمن وما ينجم عنهما من تطور فى الأساليب وألوان الخيال . ومن هذا قول التنوخى :

وليلة مشتاق كأن نجومها قد اغتصبت عينى الكرى فهى نوم
كأن عيون الساهرين لطولها إذا شخصت للأنجم الزهر أنجم

فى هذا النظم يبدو الضيق بالليل وطوله ، والاحتيال فى تصوير ثبات النجوم بالنوم الذى اغتصبته من عين الساهر ، بعد أن كان امرؤ القيس يشد وثاقها ويحكم ربطها . وأوضح من هذا فى الدلالة على تطور هذا المعنى ، واتصاله بالأفكار الفلسفية والدينية قول البحترى أيضاً :

وليلة كأنها يوم أمل ظلامها كالدهر ما فيه خلل
كأنما الإصباح فيها باطل أزهقه الله بحق فبطل
ساعاتها أطول من يوم النوى وليلة الهجر وساعات العذل

موصدة على الورى أبوابها كالنار لا يخرج منها من دخل

وفى هذا الوصف يبدو التأمل والتجريد ، كما يبدو الخفاء الناجم من تشبيه الحسى بالمعنوى ، وفيه تجميل للصورة ، وإن عده القدماء غير جميل [1] . لكن ذلك كله لا ينتج انفعالا فى النفس مثل ما تنتج صورة امرىء القيس المنطلقة عن صدق العاطفة ، وقوة الشعر ، وبساطة الفن .

ونحو هذا مع حظ أعظم من عذوبة النظم قول أحمد الضبى :

رب ليل سهرته مفكّراً فى امتداده
كلما زدتُ رعيَه زادنى من سواده
فتبينت أنـــــه تائه فى رقاده
أو تفانت نجومه فبدا فى حداده

ونطالع فى هذه الأوصاف جميعاً العمل الفنى واضحاً فى الأفكار ، وألوان التعقيد الأسلوبى ونراه على نحو أعظم فى قول الطغرائى :

كم ليلة سامرت زهر نجومها والجو من أنفاس وجدى شاحب
أرعى السماء ونجمها متبلد حيران قد سدت عليه مذاهب
وكأنها بحر يعب عبابه وكأنه فيها غريق راسب
وترى بها أم النجوم كجدول فى روضة فيها لجين ذائب
ويبابها سرب الظباء ؛ فوارد أو صادر أو راغب أو راهب

فواد الصورة مختلطة تظهر فيها البدويات فى الرعى والظباء والورد والصدور ، كما تظهر الحضريات فى أنفاس الوجد والبحر الخضم والروضة واللجين الذائب ، وقد لا يكون فى هذا كبير عيب مادام الشاعر يتأثر بالثقافات القديمة والحديثة ؛ إنما العيب فى أن يلفق الشاعر جو الوصف ، أو لا يبدو لوصفه جو . لقد عبر عن الضيق حين أفصح عن الوجد ورعى النجوم ومثل بالغريق ونحوه ، لكنه عاد فصور فى البيتين الأخيرين جو السرور الذى يتمثل فى الجداول والرياض وحركات الظباء الفاتنة المتنوعة ، فالمهموم لا تتراءى فى خياله الصور الفاتنة ، وإن تراءت أضفى عليها من همه ما يسلبها النضارة . وذلك ما لم يصنع الشاعر ؛ وهو دليل التقليد .

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد من تصوير الليل وطوله ؛ فقد رأينا أثر الشمس والقمر

---

(١) نثار الأزهار : ص ١٧ .

والكواكب والنجوم فى تصوير ألوان الطبيعة من الرياض والأنهار والخمريات . وتجاوزوا ذلك فوصفوا محاسن الليل والنهار . فالليل بنجومه الزهر يلهم الشعراء أروع المعانى ، وينطقهم بأفانين البيان الساحرة . وكثيراً ما تعلقت أبصارهم بالقمر يتتبعون أحواله ويصفونه ، كما يصفون الهلال مقترناً بالزهرة وبالثريا (١) .

والشريف الرضى يتفنن فى وصف القمر تحت الشعاع معنياً بتمثيل الشكل البراق على طريقة ابن المعتز . ومثله الشريف العقيلى وسعيد المرزبانى . لكن معنى الحب يبدو واضحاً فى بعضه كقول الشريف العقيلى :

والبدر فى كبد السماء كوردة بيضاء تضحك فى رياض بنفسج

وقول الشريف الرضى مخاطباً الهلال :

سوادك من حيث تمسى هلالاً إلى حيث تكمل بدراً منيراً
نقـــاب لتركيـــة أسودٌ تُنزَّل منـــه يسيراً يسيرا

ووصفوا الكواكب والنجوم المختلفة أوصافاً تغنى بالشكل وتمثيل الحال ، ويظهر فيها أثر القديم والجديد . ومنها أوصاف الشريف الرضى الكثيرة (٢) .

وتظهر طريقة ابن المعتز على أتمها فى أوصاف أحمد بن إبراهيم الضبى وأبى الفضل الميكالى . ومن قول الأول :

خلتُ الثريا إذ بدت طالعة فى الحندس
سنبلةً من لؤلؤ أو باقةً من نرجس

وتظهر طريقة التنوخى ، من تشبيه المحسوسات بالمعنويات ، فى قول الميكالى :

وكـأن النجوم بين دجـاه سُنَنٌ لاح بينهن ابتـــداع
مشرقـــات كـــأنهن حجـــاج تقطع الخصم والظلام انقطاع

وكيفما كان الأمر فالليل يفتنهم وتفتنهم نجومه ، مادامت باهرة تملأ البصر ، وترتاح النفس لجمالها . أما إذا أظلم الليل أو ثقلت همومه فإنهم يستجيرون منه ، ويترقبون طلوع الصباح بوجهه المضىء (٣) .

---

(١) اليتيمة : ج ٢ ص ٣٤٠ .

(٢) نثار الأزهار : ص ٥٤ و٦٠ و٦١ و١١٩ و١٢١ و١٢٨ و١٣٢ و١٣٥ .

(٣) راجع قصيدة ابن لنكك : رب ليل مرقت من فحمته أنا والعيس والقنا واليروق !

وكان لابد للشمس أن تفتنهم فى هذا الجو المشرق ، فتخيلوا لها من الجمال ما شاء لهم التخيل ، وألبسوها من الحلل أبهاها ، وبدت الطبيعة فى أشعتها تأسر الحس والفؤاد .

فالتنوخى يمثلها ، على طريقته التى يضيق بها القدماء ، ونرى فيها جمالا لأنها تخاطب العقل والقلب قبل أن تخاطب الحس ، فيقول مصوراً لها فى حال الغيم :

ويوم كأن الشمس من تحت غيمهِ مفاخر قد غَطَّيْتَهَا بعيوب
إذا طلعت من فرجة فيه خلتها مخيلة جدوى من خلال جدوب
وقد مد ستراً فوقها فكأنما تغطى بكفران ثواب مثيب

أما الطغرائى فيمثلها معنيًّا بالشكل ، حين يصف طلوعها وغروب البدر ، فيقول :

وكأنما الشمس المنيرة قد بدت والبدر يحنح للغروب وما غرب
متحاربان لذا مجنّ صاغه من فضة ولذا مجنّ من ذهب

فالطبيعة السماوية فتنت أولئك القوم فتغنوا بها كما تغنى غيرهم ، وزادوا التغنى بخصائصها الكونية وأسرارها السحرية مما لا نرى له مجالاً فى موضوعنا ، واصطبغ فنهم فيها ، كما اصطبغ فى غيرها ، بصبغتهم اللفظية والمعنوية ، وظهر فيها كما ظهر فى غيرها أثر التقليد .

وهذا هو نصيبهم من الجديد فى الطبيعة ، فما حظهم من القديم ؟

٣

أما ألوان الطبيعة القديمة فتتوفر فى هذه البيئة توفراً لا مثيل له فى أية بيئة أخرى معاصرة . لقد وقفوا بالأطلال فأطالوا الوقوف وساقوا العيس وقطعوا البيداء إلى الممدوح . ووصفوا الإبل والفلاة وما يتراءى فيها من ماء وسراب ، وما يجودها من غيث ، وما يلمع فيها من برق ، وما يصادفهم فى الطبيعة نهاراً ، وما يلقونه فى الليل . نجد هذا عند الشعراء المشرقيين جميعاً ، ثم لا يؤثر تأخر الزمن فيه بل يكون من أسباب نموه ، تراه عند أبى إسحاق الصابى والتنوخى وابن نباتة السعدى والشريف الرضى وأبى سعيد الرستمى وابن بابك والخوارزمى وغيرهم من شعراء اليتيمة ، كما نراه عند مهيار الديلمى والغزى والطغرائى ، وكما نراه عند صَرَّدر والأرّجانى والأبيوردى ، وعند غيرهم من شعراء هذه البيئة لهذا العهد المتأخر .

دع من دموعك بعد البين للدمن غداً لدارهم واليوم للظعن

فيقسم دموعه بين الفراق والظعن والأطلال ، وكلها معان قديمة ، ثم يقف بالأطلال فيقول :

هل وقفة بلوى خبت مؤلفة بين الخليطين من شام ومن يمن
عجنا على الربع أنضاء محرمة أثقالها الشوق من باد ومكتمن
موسومة بالهوى تدرى برؤيتها أن المطايا مطايا مضمرى شجن

وكل هذه معان قديمة وإن تأثرت بالترف الفكرى الذى يبدو فى البيت الأخير. ومطلع قصيدته .

لمن الخدوج تهزهن الأينق والركب يطفو فى السراب ويغرق

يوهم بأن الشاعر بدوى جاهلى ، وليس من شعراء هذه البيئة لنهاية القرن الرابع وأوائل الخامس .

ونحو هذا أوصافهم للناقة والفرس والذئب والأسد فهى تسير على النهج الجاهلى . وهم حين يصفون الفيل والبرذون ينهجون النهج القديم ثم لا يبلغونه ، بل تبدو أوصافهم تقليدية جافة محرومة من فتنة القدماء بالطبيعة واندماجهم فى المطايا . وكانوا يقصدون إلى التقليد ؛ روى أن الصاحب بن عباد لما ظفر فى وقعة جرجان بالفيل الذى كان فى عسكر خراسان ، أمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه على نمط قصيدة عمرو بن معد يكرب :

أعددت للحدثان سا بغة وعَدّاء علندى[1]

على أن هذه الموضوعات القديمة كانت تتأثر بالطريقة الجديدة فى كثير من الأحيان . ويظهر هذا التأثر فى وصف الشريف الرضى للفرس بإحدى قصائده ، وأوله :

وأدهم يستمدُّ الليلُ منه وتطلع بين عينيه الثريا

كما يظهر فى وقفات الأطلال عند أبى على الخالع وعبد السلام المأمونى ، وفى وصف المعاهد البدوية على الطريقة البديعية عند محمد بن الحسين الحاتمى .

وإذا تركنا هؤلاء إلى مهيار الديلمى والغزى والطغرائى ، ومن إليهم من شعراء النصف الأول للقرن الخامس ، وجدناهم أشد فى البداوة إيغالا وأمعن إغراباً .

---

(١) اليتيمة : ج ٣ ص ١٩٤ – ٢١٢ .

وأى بداوة أعظم من بداوة مهيار الأعجمى الذى أسلم بعد مجوسية ؟ ! إنه ينحو منحى فحول القدماء ، ويهتف بالبادية ومعاهدها فى جميع شعره . ويطيل فى معنى الرعى وورود الماء ووصف الحياة البدوية ؛ حتى ليخاله الإنسان بدوياً يفخر بالبادية ، ويفضل حياتها على كل حياة أخرى [١] .

ويبدو غريباً من مهيار أن يبكى الأطلال ، ويتحدث عن الحياة البدوية حديث الأعراب فى مطالع قصائده التى يهنئ بها الحكام الأعاجم بالنيروز والمهرجان . وما أكثر ما يهنئ بهما ! .

وقد يبلغ حظ المعانى البدوية فى قصائده ستين بيتاً أو أكثر ، كما فى قصيدته التى يهنئ فيها بالنيروز :

لمن الطلول تراقصت نَجْوَى حشاك قفارها

فقد أطال فى وصف الطلول وما صنعت بها الأمطار والرياح ، وفى حديث الهوى والرحيل ، وفى ذكر الإبل ورعيها ، ثم اشتد شوقه إلى البادية فهتف بملء فمه وقلبه :

يا راعى البكرات ما نجد وما أخبارها ؟ !
اوقِد بذى السَّمُرات لى فقد استغمّ منارها
ولو أنها بضلوعى الـ ـعوجاء تُذكى نارها

ثم يطنب فى الشوق إطناباً [٢] .

ومثل هذا قصيدته :

لمن الطلول كأنهن رقوم تضحى لعينك تارة وتغيم [٣] ؟

وديوان مهيار ، بأجزائه الأربعة ، حافل بالأمثلة لهذه المعانى البدوية ، بل إن اتجاهه فى الطبيعة بدوى وليس له من معانى الطبيعة الحديثة سوى ألغاز مرت الإشارة إليها .

وإذا كان الكندى قد عاب من قبل التَّمثُّل بالمثل البدوية العليا فإن مهياراً لم يحفل به ، وإنما انطلق يُجَمِّل ممدوحيه بهذه المثل [٤] .

---

(١) ديوان مهيار ؛ ط دار الكتب : ج ٢ ص ٢٢٩ .
(٢) الديوان : ج ١ ص ٣٩٨ – ٤٠١ .
(٣) الديوان : ج ٤ ص ٨ .
(٤) الديوان : ج ١ ص ٧٨ .

وعلى شاكلة مهيار يسير الشعراء المتأخرون ، مثل صَرَّدُر والأرّجانى والأبيوردى . وإن نظرة فى ديوان «صردر» لتكفى لبيان امتداد هذا الاتجاه ، بل زيادته قوة . إنه يقف بالديار ويتحدث عن هواه وعن المطايا والعيس ، ويطنب فى الغزل البدوى (١) ، ويشتد فى الاحتجاج للوقوف بالأطلال ، فيقيم نفسه مدافعاً عن المعانى البدوية فى هذه البيئة الأعجمية ، ويصطنع الأسلوب العربى الصحيح فى شعره . وكثيراً ما هتف بالمعاهد البدوية وبالحجاز فى شعره ، وتغنى بالبادية وبحياتها فى مقام التهنئة للوزراء الأعاجم بالمهرجان أو النيروز ! وكثيراً ما أثنى على شعراء العربية المتقدمين والمتأخرين وامتدح خلالهم ! وقد يبالغ فى تمثيل الهوى النجدى (٢) . ونحو هذا كثير فى شعره (٣) ، وفى شعر غيره من أهل هذه البيئة ، فما سر ذلك ؟

٤

يتبين مما سبق أن شعر الطبيعة فى الأقاليم الشرقية قد مثل الألوان الطبيعية قديمها وحديثها ؛ وأن هتاف الشعراء ، وبخاصة الفحول ، بالقديم وبالحياة البدوية قوىّ ؛ وأنهم قد امتازوا بحظ من التأمل فى الطبيعة ، كما امتاز أسلوبهم بالجزالة ، والتخفف من البديع ، والعناية المعنوية .

والواقع أن هذا النحو من اتجاه شعر الطبيعة يسير مع الحياة الاجتماعية والسياسية سيراً وثيقاً ، وله أسبابه ودواعيه التى تهيئ لوجوده . فشعراء العربية فى هذه البيئة كانوا لا يصدرون عن ميل العامة ، ولا يتمشى أدبهم فى الجمهور ، وإنما يصدرون عن الثقافة العربية فى بيئة أعجمية ، ويقصدون بشعرهم إلى الخاصة من الحكام والعلماء والأدباء ، يستجيزون الأولين وينشدون إعجاب الآخرين . وكان شعرهم مدحاً قبل أى شىء آخر ، وكانت أمامهم نماذج فى المدح قديمة ، فمن اليسير امتثالها والسير على منوالها . وبهذا مثلوا ألوان الطبيعة القديمة ، كما مثلوا ألوان الطبيعة الحديثة .

أما الجزالة والتخفف من البديع فمرجعها إلى أن الشاعر فى هذه البيئة كان يعتمد لتقويم لسانه على الشعر القديم ، والإحاطة بمتن اللغة أكثر مما يعتمد على الشعر الحديث ؛ لأن الذى

---

(١) ديوان صردر ؛ ط دار الكتب : ص ٣٤ .

(٢) ديوان صردر ؛ ط دار الكتب : ص ١٣١ .

(٣) نفس المصدر : ص ٧ و٨ و٩ و٢٧ و٣١ و٤٨ و٤٩ و٥٧ و٦٧ و١١٩ و١٣١ و١٣٢ و١٧٧ و١٩٣ و١٩٤ .

ينشد اللسان العربى السليم لابد من أن ينشده فى مواطنه الأصلية الخالصة من الشوائب . ومن هنا توفر لهم العلم بالقديم ، وأصبح شعراؤهم عظيمى الحظ من اللغة ، كما أصبح كتابهم مفتونين بالغريب .

والعناية بالمعنى والتأمل نتاج طبيعى لما شاع فى تلك البيئة من فلسفة وحكمة ، ظهر أثرهما واضحاً فى فنون الشعر الأخرى أكثر من وضوحه فى شعر الطبيعة .

أما هذا التعلق الشديد بالبادية فرجعه أن هؤلاء الشعراء ؛ بين أعجمى الأصل ، وهم الكثرة ، وأعجمى البيئة وهم القلة — قد أثرت الثقافة العربية التى هاموا بها فى نفوسهم ، فتعلقوا ببيئتها وبأصحابها ، شأن المحدثين والمعاصرين الذين يتعلقون بالنزعات الأجنبية التى يتثقفون بثقافة أهلها . وساعد على هذا التعلق ما يحسّونه من ميل إلى هذه البيئة بحكم الدين ، وصاحب الرسالة ، والتشيع لآل البيت .

وقوى على اندفاعهم فى التعصب للعربية أن بيئتهم كانت تضم جماعة أخرى من الشعراء يخدمون اللسان الأعجمى ، ويتغنون بمحامد الفرس وبفضائلهم الطريفة والتليدة ؛ فكان لابد لتلك الجماعة من شعراء العربية أن تقابل إطراء العجم بإطراء العرب ، وأن تروج للسانها بالترويج لأهله . وقد ظل هذا التنافس حتى توارث العربية ، وغلب أصحابها على أمرهم .

* * *

ومن هذا كله نرى أن شعر الطبيعة فى هذه البيئة كان وحياً للحياة الاجتماعية والسياسية ، كما كان وحياً لها فى غيرها من البيئات ، وكان نتاجاً لعوامل من شأنها أن تنتج مثله .

الفصل الثالث

فى الأندلس

١

الأندلس ، كما سماها العرب ، أو إيبيريا Iberi كما سماها اليونان ، أو إسبانيا Hispania كما سماها الرومان ، شبه جزيرة فى الجنوب الغربى من أوربا ، لا يفصلها عن أفريقية سوى مضيق جبل طارق . وقد أطلق العرب عليها اسم الجزيرة ، كما أطلقوه على شبه جزيرتهم . وأعظم بلاد الأندلس العربية فى القسم الجنوبى وهو أخصبها ؛ ويتألف من هضبة ذات أجزاء منفصلة ، تجرى فيها أنهار كثيرة .

وجوّ هذه البلاد معتدل وتربتها خصبة ليس بها صحارى ؛ فهى أنضر البقاع الإسلامية وأبهاها . تبدو كروضة كبيرة ؛ يجرى فيها الماء ، وترتفع الجبال الخضراء ، وتغرد الطيور فوق أغصان أشجارها ، وتنساب الماشية والأنعام فى مراعيها الجميلة ، ويعمل الفلاحون فى حقولها الكريمة ، ويعطر النسيم بساتينها المشرقة ، ويستشعر أهلها جميعاً معانى ذلك الجمال فيهيمون بها ، ويقبلون على اللهو والمرح ، ويركنون إلى الدعة والمتاع بالطبيعة مصطنعين ألواناً من التسلية تتفق مع نزعتهم إلى اللعب ؛ قد تكون هينة ، وقد تكون عنيفة . وأشهر أنواع لهوهم مصارعة الثيران التى شغفوا بها ، وأقاموا لها الملاعب والميادين .

ولعل تلك الطبيعة المشرقة الغنية الجذابة هى التى جعلت قلوب الناس تهوى إليها ، ودفعتهم إلى سكناها من أقدم العصور ؛ فنزلها فى القديم البعيد الكلتيون والبسك والجلالقة وغيرهم ، كما نزلها بربر من أهل أفريقيا الشمالية ، والقرطاجنيون ، والفينيقيون ، وكما استولى عليها من بعد الرومان والفندال ، ثم القوط ، فالعرب .

وبهذه الطبيعة وبهذا الماضى اجتمع لها من الفضل ما عبر عنه أبو عبيد البكرى بقوله : « الأندلس شآمية فى طبيعتها وهوائها ، يمانية فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى عطرها وذكائها ،

أهوازية فى عظيم جبايتها ، صينية فى جواهر معادنها ، عدنية فى منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة للونانيين أهل الحكمة وحاملى الفلسفة » (١) . وقد أطنب المقرى فى وصف طبيعتها الفاتنة الغنية ، ثم انتهى إلى أن « محاسن الأندلس لا تستوفى بعبارة ، ومجارى فضلها لا يشق غباره » (٢) .

٢

قاد عقبة بن نافع المسلمين إلى شمال إفريقية ففتحها سنة ٥٠ هـ ، وأسس مدينة القيروان . غير أن قبائل البربر لم تنقطع ثوراتها حتى عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك فعهد إلى موسى بن نصير بولاية إفريقية ، فأخضع تلك القبائل وفتح طنجة ، وأذعنت بلاد إفريقية الشمالية وأسلم أهلها .

وفى أوائل العقد العاشر للقرن الأول الهجرى عبر المسلمون البحر الأبيض المتوسط بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد ، والتقوا بلزريق القوطى Roderic The Gothic وجنده ، فهزموهم قريباً من قادس وفتحوا إسبانيا ، وظلوا يتوغلون فيها حتى بلغوا ، بعد واحد وعشرين عاماً من غزوها ، قلب فرنسا عند مدينتى تورو بواتييه Tours & Poitiers .

لكن هذا الفتح لم يكفل السلام لتلك البلاد ، وإنما ظلت وقتاً طويلاً مضطربة قلقة تسودها الثورات والفتن . فلم يكد العرب الفاتحون يستقرون فيها حتى هددتهم ثورة البربر التى امتدت إليهم من شمال أفريقية ، فأقضّت مضاجعهم وحرمتهم راحة الطمأنينة ، ثم لم تلبث أن أخمدت . ولو أن الأمر كان مقصوراً على هذه الثورة لهان : لكن عناصر الفتنة الدائمة كانت فى ذات البلد بتأليفه المتنافر ؛ فلم يكن مناص من أن تصطلى البلاد بلاءها ، ومن أن يطول هذا الاصطلاء . لقد رحل إليها العرب عقب الفتح من مختلف القبائل العدنانية والقحطانية ، وكان القحطانيون أكثر من العدنانيين ، وكان هؤلاء العرب جميعاً من الطراز الأموى ، يعيشون فى بيئة حضرية إسلامية بروح بدوية جاهلية ؛ كما رحل غيرَ أولئك جميعاً كثير من سكان مصر والشام والعراق وبربر أفريقية الشمالية ، وعاشوا مع أهل البلد القوطين وغيرهم من مسيحيين ويهود .

---

(١) نفح الطيب ، ط مصر الأولى سنة ١٣٠٢ هـ : ج ١ ص ٦٤ .

(٢) نفح الطيب ، ط مصر : ج ١ ص ٦٣ .

وهكذا سكنت ثورة البربر لتُبعث العداوات العربية القديمة من مراقدها ، وتشتد الفتن بين عرب الشمال وعرب الجنوب أو العدنانيين واليمنيين ، حتى يقتتلوا ويرووا تلك الطبيعة الآمنة بدمائهم . وإذا سكنت العداوات الجاهلية بينهم ، انبعثت عداوات جديدة بين هؤلاء العرب مجتمعين وبين السكان الأعاجم .

ورحل عبد الرحمن الداخل إلى إسبانيا ، فتم له ، بغير مجهود حربى وبمساعدة العداوات العنصرية ، حكم تلك البلاد ، وأسس بها سنة ١٤١ هـ دولة بنى أمية الأندلسية التى استمرت نحو ٢٨٤ عاماً حكم فيها تسعة عشر خليفة .

وواجهت تلك العداوات صقر قريش ، كما سماه بحق الخليفة المنصور العباسى [١] ، فعمل للتغلب عليها ، لكنه اصطنع فى عمله أسلوب العباسيين فى استخدام الأجانب ؛ فاستعان بالبربر ، وانتهى الأمر كذلك بسيادتهم وبحكمهم الأندلس ، وإن تأخر الزمن بفعل من بعده ، وبخاصة عبد الرحمن الثالث الذى أنجى الأندلس من نفسها ومن السلطان الأجنبى ، كما يقول دوزى [٢] .

وبعد سقوط دولة الأمويين فى الأندلس انقسمت البلاد على نحو ما انقسمت الإمبراطورية الإسلامية بعد زوال السلطان الحقيقى للعباسيين ؛ فحكمها ملوك الطوائف مستقلاً كل منهم بناحية كابن عباد فى أشبيلية ، وابن هود بسرقسطة ، وابن الأفطس فى بطليوس ، وذى النون فى طليطلة ، وكان أقوى هؤلاء جميعاً العباديون حكام أشبيلية .

وفى هذه الأثناء ظهرت دولة المرابطين من برابرة أفريقية الشمالية ، فأخضعوا البلاد لسلطانهم ، وأصبحت الأندلس ولاية أفريقية ، لكن الفساد استشرى بحكمهم ، فسقطت دولتهم لتخلُفَها دولة الموحدين التى نشأت بمراكش فى أوائل القرن السادس الهجرى (٥١٥ هـ) ، ثم لم يلبث بعض الأمراء الأندلسيين أن ثاروا وردّوهم إلى بلادهم ، وكان فى مقدمة هؤلاء الثائرين ابن هود وابن الأحمر ، فملك ابن هود شرق الأندلس واتخذ سرقسطة قاعدة له ، أما ابن الأحمر فقد حكم غرناطة . ولم تنته بهذا الاضطراباتُ كذلك ؛ فنشب قتال بين بنى هود وبنى الأحمر انتهى بهزيمة بنى الأحمر وحكم بنى هود لغرناطة أيضاً ، وظل حكمهم نحو قرنين ونصف قرن .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، نشر دوزى ج ٢ ص ٦١ .

(٢) Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, Lyden, 1861 : III, p. 8, 97.

فإذا كانت أواخر القرن التاسع غُلِب العرب على أمرهم ، وطردهم الأسبانيون من البلاد ليحلوا محلهم ؛ فيحل الجهل محل العلم ، وتغرب شمس الحضارة فى هذه البلاد التى أضاءت العالم زمناً غير قصير ، لتتبوأ مكاناً قصيًّا فى ميدان النشاط العالمى إلى يومنا هذا ! .

٣

وحين فتح العرب الأندلس كانوا قلة بين سكانها ، فعاشوا بلغتهم بين جمهرة لا تعرفها ، وظلوا كعرب فارس ومستعربيها يعيشون بأفكارهم فى البيئة العربية الأولى ، وإن أقاموا فى الأندلس الأوربية ، وصار أدبهم صدى للأدب الشرقى ، وظل شعراء الشرق يرحلون إليهم ، فيشبعون آذانهم وقلوبهم .

وساعد على هذه المحافظة أن الفاتحين كانوا من العرب المتعصبين لعربيتهم ، السالكين مسلك جماعتهم الأموية فى التشبث بالقديم ؛ فلم تفتنهم الأندلس ، وإنما تعلقت نفوسهم بوطنهم الأول ، وكبر نَبْعُه فى نفوسهم عن محيط الأندلس ! .

وقد ظهر التشبث بالوطن والتعلق به على أشده فيما نسب من شعر إلى عبد الرحمن الداخل . وما كان أولاه بأن ينسى ماضيه ومتاعبه ، وأن يفتح نفسه وقلبه لحياة الأمن والنعيم بعد القلق والشقاء ! لقد بصر بنخلة فأثارت شجونه وأخذ يغنى بأبيات منها :

نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك فى الإقصاء والمتنأى مثلى [١]

وكم حن إلى الشام ، وحمل الركبان أشواقه إليها ؛ ففؤاده وهواه بها . وظل هذا الشوق يملك عليه فؤاده . حتى روى أنه عزم الرحيل إلى الشام سنة ١٦٣ هـ ليغلب بنى العباس عليها ، ويردها إلى بنى أمية لولا أحداث داخلية . ومثل هذا الحنين نراه عند كثير من ولاة الأندلس ، بله عامة العرب ومن لم يؤتوا من الحظ ما أوتى هؤلاء السادة [٢] . ومن هنا كثرت الشكوى عند شعراء الأندلس الأولين ، ورأينا كثيراً منهم يقاسون فى شعورهم الهم والاغتراب وفراق الأهل والوطن [٣] .

---

(١) الحلة السيراء لابن الأبار ؛ نشر دوزى : ص ٣٤ .

(٢) نفح الطيب : ج ٢ ص ٧٦ ، ٧٩ .

(٣) يتيمة الدهر : ج ٢ ص ١٨ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٧٢ – ٧٣ .

فالشعراء الذين رحلوا إلى الأندلس لعهودها الأولى من التجوز أن يسموا شعراء أندلسيين ؛ لأنهم من الجماعات الشرقية التى استولت معانى الوطن عليهم ، وكان لهم من عنصر المحافظة والتقليد ما يحول بينهم وبين المتاع بالمباهج الغربية ، كما كان عنصر القلق السائد فى البلاد مما لا يهيئ للأدب استقراراً واطمئناناً . والذين يتصورون هؤلاء الشعراء ، ثم يرتبون نتائج من عدم تمثيل الأدب للبيئة يخطئون خطأ كبيراً ، كما يخطئ بعضهم حين ينسب الشاعر إلى البلد الذى رحل إليه بعد تقدم فى السن . على أننا قد رأينا الأدب المعاصر فى الشرق لا يمثل البيئة العربية الجديدة ، وإنما يظل فى القرنين الأول والثانى جامداً محافظاً ، ثم يبدأ تحرره فى القرن الثالث ، وتتم له مظاهر التحرر فى الشام بالقرن الرابع ، ثم لا يتم له تحرر مماثل فى الشرق الأعجمى .

فعصر الأمويين الذى امتد إلى أوائل القرن الخامس الهجرى يمثل فى الأندلس شعر التقليد لأدب الشرق ؛ لأن العربية لمّا تكن قد تكوّن لها مزاج خاص فى هذه البيئة ، وإنما كانت تعيش غريبة على حساب وطنها الأصلى .

ومن هنا اجتمع لها من معانى الطبيعة القديمة والحديثة ما اجتمع للبيئة المشرقية فى غير مخصصات ولا مميزات إقليمية واضحة . ولهذا نرى شعر ابن عبد ربه ، وابن هانئ ، وابن شهيد ، وابن دراج القسطلى ، ومؤمن بن سعيد ، ويحيى بن الفضل ، وإدريس ابن عبد ربه ، وغريب بن سعيد وغيرهم — شعراً شرقياً فى أسلوبه ومعانيه .

وإذا كان القرن الخامس وجدنا الشعراء يصدرون عن الحاضر ، ويمثلون النفس ومشاعرها والبيئة ، مع الأخذ بحظ من التقليد . فإذا انتهى هذا القرن ثم انتصار الجديد ، وكان مظهر هذا الانتصار واضحاً فى كتابات ابن بسام والفتح بن خاقان ، كما كان واضحاً بالمشرق فى كتابات الثعالبى قبل هذا بنحو قرن .

ويتمثل شعر القرن الخامس فى آثار ابن برد الأصغر ، وابن زيدون ، وابن عمار ، والمعتمد ابن عباد ، وابن الحداد ، والأعمى التطيلى ، ومن إليهم من شعراء الطوائف الذين يجمعون طرافة البيئة إلى معانى السابقين .

أما شعر الأندلس الذى يمثل البيئة وتجتمع له الحداثة والجدة ، فيجب أن نلتمسه عند الشعراء المتأخرين فى القرن السادس وما بعده عند ابن حمديس ، وابن عبدون ، وابن خفاجة ، وابن وهبون ، وابن سهل الإسرائيلى : ولسان الدين الخطيب وغيرهم .

وفى دور التقليد نرى من معانى شعر الطبيعة ما وجد من أقدم العصور إلى القرن الرابع [١] .

ولعل ابن شهيد يمثل هذا الاتجاه أوضح تمثيل . ولعل ما نقله ابن بسام من رسائله وأشعاره يكفى فى هذا الباب [٢] . فابن شهيد كان كسائر معاصريه يقلد القدماء كما يقلد المحدثين ، وكان يعيش بأدبه فى عصور مختلفة ، ويشترط الغريب للشعر كما يشترط الطبع ، ويعجب بامرئ القيس وعنترة وزهير ، كما يعجب بأبى تمام وأبى نواس والشريف الرضى ، ويفاخر الشعراء القدماء فى معانيهم ، كما يفاخر المحدثين . وإذا وصف الأطلال والبادية وما إليها من معانى القدماء وصف كذلك الطبيعة فى جو الخمر ، والنجوم والليل على الطريقة الحديثة ، والزهر والثلج وغيرها . وكانت له يد فى بعض الألوان الطبيعية الجديدة التى شاعت بالأندلس فى هذا العصر .

وتمثل جملة فن المحدثين فى الطبيعة قصيدته :

أمّا الرياح بجو عاصم فحلين أخلاف الغمائم

وقد أورد منها صاحب الذخيرة سبعة وسبعين بيتاً . وصف الغيث والروض والزهور والطير فى جو الحب والخمر ، كما وصف الليل والفجر . وأطنب فى حديث الطرب .

ومن قوله فى الزهر :

ورد كما خجلت خدو د العين من لحظات هائم
وشقيق نعمان شكت صفحاته من لطم لاطم

ومن قوله فى الحسان المبكرات إلى الروض :

ضحكت وأومض بارق فظليلت للبرقين شائم
ورنت فبادر نرجس يشكو عماه إلى حمائم

ومن قوله فى الصباح :

حتى إذا عَلَم الصبا ح أشار من تلك المعالم
وتمايلت أيدى الثريا وهى مذهبة الخواتم

---

(١) الذخيرة ، نشر كلية الآداب : ج ١ ص ١٧٣ ، ٢١٤- ٢١٥ ؛ واليتيمة : ج ٢ ص ٢٤ ، ٤٨ .
(٢) الذخيرة : ج ١ ص ١٦١- ٢٧٠ .

ورنت ذكاء بناظر رمدٍ من الأقذاء سالم
طلع الصوار لحينه وكأنه الموج المراكم

فنراه يصطنع فن المحدثين البديعى ، ويعنى بالمعانى مع تصوير الشكل . ولعل الفتح ابن خاقان قد أصاب حين وصفه فقال : « عالم بأقسام البلاغة ومعانيها . . . توغل فى شعاب البلاغة وطرقها وأخذ على متعاطيها ما بين مغربها ومشرقها »[1] . وابن شهيد طالما وصف مشاهداته فى الطبيعة . وقد برز حين وصف الطبيعة والحب . ويبدو الفناء فى الطبيعة فى تصويره لبكاء الحمائم ، وإن كان موضوعاً قديماً . ومنه قوله :

وقلت لصداح الحمام وقد بكى على الغصن إلفاً والدموع تجود :
ألا أيها الباكى على من تحبه كلانا معنًّى بالخلاء فريد !
فصفق من ريش الجناحين واقفاً على القرب حتى ما عليه مزيد
وما زال يبكينى وأبكيه جاهداً وللشوق من دون الضلوع وقود
إلى أن بكى الجدران من طول شجونا وأجهش باب جانباه حديد !

هكذا يتناول ابن شهيد معانى القدماء على طريقتهم حيناً ، وعلى طريقة المحدثين حيناً آخر ، كما يتناول معانى المحدثين ، وكما يعبر عن حسه وبيئته فى الأحيان . لكن هذا التعبير لا يعدو اللمحات الخاطفة فى سماء التقليد المظلمة ، ومثله لا يؤبه له ؛ فلطالما هبت فى الأجواء الراكدة نسمات منعشة . وليس الأمر فى هذا مقصوراً على ابن شهيد وحده فهو شائع فى شعراء ذلك العهد جميعاً . ولعل دراسة شعر الطبيعة عند ابن هانئ ، فحل ذلك العصر ، يكشف عن اتجاه الشعر فيه ، ويصوره أصدق تصوير .

٤
ابن هانئ

عاش ابن هانئ فى القرن الرابع الهجرى ، وتوفى سنة ٣٦٢ هـ فى السادسة والثلاثين أو فى الثانية والأربعين ، وولد بأشبيلية ، وعاش فى الأندلس وفى أفريقية موطن أبيه الأول .

(١) مطمح الأنفس ومسرح التأنس ، للوزير الكاتب أبى نصر الفتح بن خاقان ؛ ط مطبعة السعادة : ص ١٩ .

وكان المتوقع أن يمثل فى شعره البيئة الغربية ؛ لكن عوامل التقليد التى رانت على الشعر لذلك العصر ، وما يتصل بها من الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية ، جعلته يتجه نحو التقليد ، وجعلت شعر الطبيعة عنده مثلاً من ذلك الشعر عند القدماء والمحدثين السابقين .

والواقع أن ابن هانئ يمثل الشاعر المقلد . نجد فى شعره صوراً من شعر الجاهليين كالنابغة وزهير ، ومن شعر الأمويين كعمر بن أبى ربيعة والفرزدق وجرير ، ومن شعر المحدثين كأبى تمام وأبى نواس والمتنبى . ولما كان شعره مدحاً فى أساسه لم يرد غيره إلا خدمة له . وكانت فتنته بالمتنبى قوية ؛ يقلده فى مطالع القصائد وفى أسلوب المدح ، وفى الغزل ، وفى الحكم والفلسفة . ومن هنا قالوا عنه متنبى الغرب ؛ كما قالوا إن الشرق حسد المغرب عليه .

المعانى البدوية :

وإن كثيراً من قصائده ، لولا أشخاص الممدوحين وحوادث العصر ، لصورة مطابقة للشعر البدوى بأسلوبه ومعانيه . وتكفى للدلالة على هذا قصيدته :

نظرت كما حلت عقاب على أرم وإنى لفرد مثل ما انفرد الزلم

فهذا الشاعر يجوب البيئة العربية فى الجزيرة وغيرها ويتعلق بها خياله ، فيتصور نفسه فريداً فى باديتها ، وينساب فى أوديتها ، ويعلو مرتفعاتها ، ويغرد كطيرها ، ويتفقد الحبيبة ومعاهدها وديارها ، ويهتدى بالنار ، كما يصنع البدوى فى صحرائه تماماً . وليس الأمر مقصوراً على هذه القصيدة ، بل يشيع فى شعره التصوير البدوى للبيئة بما فيها من صحارى ورمال وآرام وعقبان وإبل وخيل [١] .

ونحو هذا حديث الظعن فى قصيدته :

أحين ولّت أنجم الأفق وانهزم الغرب عن الشرق

ومنها قوله :

فى الآل تحدوهن لى أدمع تراهن العيس على السبق [٢]

ويشبهه أيضاً الإمعان فى وصف البرق والمطر فى معرض المدح على الأسلوب البدوى [٣]

---

(١) ديوان ابن هانئ ؛ ط بيروت سنة ١٨٨٦ : ص ٤ ، ٤٠ ، ٦٦ ، ١٧٩ ، ١٨٤ .

(٢) الديوان : ص ١٢٤ .

(٣) الديوان : ص ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ١٠٤ و١١٥ .

ومثل ذلك ما جاء فى قصيدته :

أتظلم إن شمنا بوارق لمّحا وضحن لسارى الليل من حيث توضحا

ومنه قوله :

تحمل ساريها إلينا تحيـــة * فهيج تذكاراً ووجداً مبرِّحا
وعارضه تلقاء أسماء عارض بكفى بشير فوقه مترجحاً
ولما تهادى نكب البيد معرضا وأتأق سجلا للرياض مطفحا
تدلى فخلت الركن من هضباته كواسر فتخافى خفافيه جنحا

فهذا النظم بدوى فى أسلوبه ومعانيه ، وإن ظهرت فيه أثارة من الحداثة فهى خافتة لا يتعلق بها السمع .

المعانى الحديثة :

وكان من تمام التقليد ألا يقف عند معانى البدويين ، وإنما يلم كذلك بمعانى المحدثين وتصوراتهم للطبيعة ؛ فإذا هاجه مرأى البرق وذكر ليل الركب ، وطرب لغناء الحمائم على الأيك – صاح بخليليه :

خليلى هيا نصطبحها مدامة لها فلك وِتْرٌ به أنجم شفع

فيجمع بهذا بين معانى القدماء ومعانى المحدثين .

وربط بين الطبيعة والخمر على طريقة المحدثين الخالصة فى مثل قوله :

وليل بت أسقاها سلافاً معتقـــة كلون الجلّنـــار
ونجم الليل يركض فى الدياجى كأن الصبح يطلبه بثار

ويظهر أن الجلنار كان يستهويه بلونه الأحمر القانى ؛ فتعلق به بصره ، ووصف صورته فى نحو قوله :

كأنما مجت دماً من نحر أو نشأت فى تربة من جمر

أو رويت بجدول من خمر . . .

ونحوه قوله فى الشقيق :

بها أرجوانى الشقيق كأنه خدود تدمّى أو نحور تلخلخ

وقوله فى ألوان الورد والنرجس والياسمين خادماً للمدح كذلك :

وثلاثة لم تجتمع فى مجلس إلا لمثلك والأديب أريب
الورد فى رامشة من نرجس واليـــاسمين وكلهن غريب
فاصفر ذا واحمر ذا وابيضّ ذا فأتت بدائع أمرهن عجيب
فكأن هذا عاشق وكأن ذا ك معشق وكأن ذاك رقيب

وإذا تعلق بصره بالروض ومثل هذا التعلق تمثيلاً فاتناً ، فلكى يفضل محاسن الممدوح عليه فى نحو قوله :

ألم تريا الروض الأريض كأنما أسرة نور الشمس فيه سبائك
كأن كؤوساً فيه تسرى براحها إذا عللتها الساريات الحوائك
كأن الشقيق الغض يكحل أعيناً ويسفك فى لباته الدم سافك
وما تطلع الدنيا شموساً تريكها ولا للرياض الزهر أيد حوائك
ولكنها ضاحكتنا عن محاسن جلتهن أيام المعز الضواحل

فالشاعر الذى اتبع طريقة من قبله فى الفتنة بالطبيعة ، وأخذ بحظ مذكور من جمال البيان لهذه الفتنة ، قد غض من فنه اتباعه سبيل البعض فى تصوير الطبيعة شيئاً غير مذكور بجانب الممدوح ، ولا يشفع له أن هذا التصوير مقصود به التحلية .

وقد عنى كذلك بالنجوم وصفاتها فى قصيدته التى مدح بها جعفر بن على :

أليلتنا إذ أرسلت وارداً وخفا وبتنا نرى الجوزاء فى أذنها شنفا

وقد أثنى القدماء على ما فيها من تشبيهات بارعة «خرق فيها المعتاد» على حد قول المقرى [1] . ومنها قوله :

كأن رقيب النجم أجدل مرقب يقلب تحت الليل فى ريشه طرفا
كأن سهيلاً فى مطالع أفقه مفارق إلف لم يجد بعده إلفا
كأن بنى نعش ونعشاً مطافل بوجرة قد أضللن فى مهمهٍ خشفا
كأن سهاها عاشق بين عود فآونة يبدو وآونة يخفى
كأن ظلام الليل إذ مال ميله صريع مدام بات يشربها صرفاً
كأن عمود الصبح خاقان معشر من الترك نادى بالنجاشى فاستخفى
كأن لواء الشمس غُرة جعفر رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفاً

(١) نفح الطيب . ج ٢ ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

ولا ريب أن هذه تشبيهات بارعة ، وأننا نحس فيها بالقصد إلى البراعة فى التشبيه قصداً يعبر عنه التكرار لأداته . وهذا مقصد قديم للشعراء إذ يرون من تمام البراعة فى الشعر القدرة على التشبيه . ولكن القارئ يحس على هذا ، طرافة فى هذه التشبيهات مصدرها حسن تصوير الشاعر لحسه الدقيق .

وقد ظن أحد الباحثين أن تكرار أداة التشبيه يدل على جمود التشبيهات عند هذا الشاعر أو فى هذا الدور ، لكن الواقع أن هذا التكرار خاصية من خواص هذا الشاعر يدل عليها درس شعره . فهو مفتون بتكرار اللفظ الواحد ؛ يكرر لفظ « من » ست مرات ، ولفظ « هذا » ثلاث مرات ، ولفظ « لو » إحدى عشرة مرة . ويكرر غيرها من الألفاظ (١) . وقد يكون فى هذا لون من الإدلال بالشاعرية والتمكن اللغوى ، وهو على كل حال مسبوق به .

وإذا نظرنا إلى هذه التشبيهات جملة وجدنا الشاعر لا يعنى بالصورة والشكل وما يتصل بهما من اللون قدر عنايته بتصوير الحال ، وأن هذا التصوير طريف جذاب وإن لم يكن مبتكراً .

فابن هانئ قد تمكن من الشعر القديم ، وألم بغريب الشعر وقريبه ، وقصد إلى المحاكاة والاقتداء . ومثله كان سائر الشعراء لهذا العصر فى هذه البيئة .

٥

أقام العرب بإسبانيا حيناً ولغتهم غريبة فى تلك البلاد لا يعرفها الشعب الإسبانى ولا يفقه آدابها ، لكنها لم تلبث أن غزت تلك البلاد وغلبتها على لغتها كما غزاها أصحابها وغلبوها على حكومتها . وكان من اليسير أن تتغلب لغة الفاتحين كما هى الحال فى كل أمة وعصر ، وبخاصة إذا لم يكن هناك أدب قومى يعارض أدب الحاكمين ، وكان العرب من حسن المعاملة لأهل البلاد بحيث جعلوهم يقبلون على لغة الحكومة وآدابها .

ولقد مثل ألفارو Alvaro أسقف قرطبة إقبال المسيحيين الإسبان على اللغة العربية وآدابها ، حين شكا من أن أهل ملته يقرأون الشعر العربى والأخبار العربية ، ويدرسون كتابات متكلمى الإسلام وفقهائه ، لا لكى يفندوها وإنما لكى يكتبوا العربية فى صحة وإتقان . وتأسف على ضياع اللاتينية بين المسيحيين ، وعلى حماسهم الشديد للغة العرب ، وإنفاقهم السخى على

(١) الديوان : ص ٤ و٨٨ و١٤٨ و١٤٩ و٣١٩ .

مكتباتهم العربية ، وإعلانهم فى كل وقت ومكان الإعجاب بأدبها والازدراء لكتب المسيحية . . ثم قال : « وأسفاه ! لقد نسى المسيحيون لغتهم ، حتى ليندر أن تجد بين الألوف واحداً يستطيع الكتابة ، فى أسلوب وسيط ، كتاباً إلى صديقه ، بينما يستطيع كثيرون جداً أن يعبروا عما فى أنفسهم بالعربية تعبيراً بديعاً ، وأن يقولوا الشعر بهذا اللسان فى حذق يفوق حذق الشعراء العرب أنفسهم [١] » .

وربما كان الأسقف مبالغاً فى تصويره بحكم العاطفة الدينية ، وقوة تملكها لنفسه ، لكننا ينبغى أن نذكر صدور هذا القول فى منتصف القرن التاسع الميلادى ، وأنه إذا جاوز الحقيقة فى ذلك الوقت فإنه لا يمثل بعضها من بعد . ولم يكن أمر الإقبال على العربية مقصوراً على المسيحيين من أهل البلاد وإنما كان يشمل العناصر كلها . وقد صورت الكتب القديمة براعة اليهود فى العربية ، ونقلت إلينا أشعارهم وحديث بعض شعرائهم كابن سهل الإسرائيلى [٢] .

أما الأسبان الذين أسلموا والموالى فقد صاروا بعد زمن قليل كالعرب الخُلَّص [٣] .

بهذا كله صارت اللغة العربية لغة وطنية فى الأندلس ؛ يتحدث بها سكان البلاد جميعاً ، ويتوفرون على أدبها توفّراً يصوره على نحو عجيب المقرى وابن خاقان والقزوينى فيذكرون أن الشعر يشيع بين العامة من الفلاحين والصناع وبين الطبقات جميعاً . وبهذا لم يعد عرب الإسبان ومستعربوهم يلتمسون المعانى العربية القديمة والحديثة ، وإنما يمثلون المعانى كما تتصورها نفوسهم ، وكما يتصورها الناس فى كل طبقة ومكان .

٦

وكيف تكفى المعانى القديمة ، وعرب الأندلس قد كملت الحضارة فى بيئتهم ، وبعُد العهد بينهم وبين البداوة ؟ إنهم يعيشون فى قصور تزينها الحدائق والبساتين ، وينضرها الشجر والزهر ، وتنساب فيها الغدران . وهم يطالعون الطبيعة كما أبدعها الله فى الحقول وفى الرياض ، ويطالعونها كما صورها الفن مجلوة فى القصور والمساجد والبرك والأحواض فيكمل تذوقهم لجمال

---

(١) Dozy : Histoire des Musulmans. Paris: Vol. II. p. 103-105.

(٢) الذخيرة ؛ قسم أول ، مجلد أول : ص ١٩٩ – ٢٠٠ .

(٣) Nicholson : A Literary History of the Arabs. p. 415.

الطبيعة ، وتتضح ألوانها وأشكالها أمام نواظرهم فيزدادون لها حبًّا وبها تعلقاً . وحياتهم الاجتماعية أصبحت جديدة كل الجدة ؛ فالنساء يشاركن الرجال ، وينهضن بأعباء الفن والأدب . والموسيقى تسمو بهم إلى آفاق عاليه ، ولباسهم تبدل فنبذوا العمامة واصطنعوا لباس النصارى ، كما اصطنعوا أسلوبهم وأدواتهم فى الحرب وأخذوا بكثير من تقاليدهم فى العيش ، وبلغت مدنهم من العمران مبلغاً لا يتصوره عقل البدوى القديم ، وتعقّد نظام الحكم تعقده فى الدول المتحضرة ، وأصبحت الحكومة تضطلع بما تضطلع به الحكومات الحديثة . ونبغ فى البلد كثيرون من الفلاسفة والعلماء والأطباء امتازوا بسعة مداركهم ، وكان لهم طابع يشخصهم . وانتقل العرب فى الأندلس نقلة واسعة المدى ، ولم يكن بد من أن يلتمسوا صور الطبيعة فى بيئتهم ، وأن يرفضوا التقليد .

٧

وكان من عوامل التحرر التقليد ذاته ؛ فما داموا يقلدون المشرق ، وما دام المشرق قد تحرر ، أو تحرر شامه ، فليتحرروا مثله ، ولينسجوا على منواله . وكان أثر الشام فى الأندلس واضحاً فى أسماء البلاد والمعاهد والأنهار . وكان لها بالشام شبه كبير حتى عدها أبو عامر السلمى « من الإقليم الشامى » (١) . ولهذا نجد فى أصوات الدعاة للتحرر أثراً يشبه الصدى لصوت دعاته فى الشرق ؛ فابن بسام يسخر من قدماء الشعراء ومحدثيهم ومن دعاة التقليد والمفضلين للقدماء ، ويقدم معاصريه من شعراء الأندلس ويعنى بهم ، ويقرر أنه ائتسى فى تأليف كتابه « بأبى منصور فى تأليفه المشهور المترجم بيتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر » . وظهر هذا الائتساء واضحاً فى أسلوب التأليف ، كما اتبع الجاحظ فى مسائل كالعناية بنقد الكتاب وتقديمه على ما سواه من ألوان النقد ، وكما اتبع أبا نواس وغيره فى السخرية من الأطلال . وعنى بالبديع على طريقة المحدثين من أهل المشرق ، وذكر أنه « قيم الأشعار وقوامها ، وبه يعرف تفاضلها وتباينها » (٢) .

ومثل ابن بسام فى الذخيرة الفتح بن خاقان فى قلائد العقيان ومطمح الأنفس (٣) . وقد

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٦٤ . ويراجع ج ١ ص ٦١ و٧٢ – ٧٣ و٨٥ ، ج ٢ ص ٤٤١ .

(٢) الذخيرة : ج ١ ص ١ – ٤١ .

(٣) قلائد العقيان ؛ ط مصر سنة ١٣٢٠ هـ : ص ٢ – ٣ ، ومطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس ؛ ط السعادة : ص ٣ – ٤ .

اتبع طريقة ابن بسام مع عناية بالناحية الأدبية على نحو ضيق فى قلائد العقيان ، وعلى نحو أضيق فى مطمح الأنفس .

وهذه العوامل المختلفة ؛ من صيرورة اللغة العربية لغة الأندلسيين ، وتعلق السكان بها وبأدبها ، وتأصل روح الحضارة فى نفوس العرب ، واحتذاء المشارقة ، وبخاصة الشآميون ، فى نهضتهم – قد مهدت لنهضة شعر الطبيعة فى الأندلس ، وكان لهذه النهضة مظاهر متنوعة .

٨

وأول مظاهر النهضة تعلق الشعراء ببيئتهم ، وتفضيلها على غيرها من البيئات ، بعد أن كان هواهم متعلقاً بالديار العربية فى شبه الجزيرة وما حولها .

فابن سفر المرينى يتعلق بالأندلس ، ويراها روضة الدنيا وما سواها صحراء ، ويرى أن كل ما فيها جميل مطرب ، وأن الطرب فى سواها غير ممكن ، وأنها حسناء ، وأن ما فيها وما حولها من موجودات الطبيعة هائم بها [1] . ولابن حمديس ولابن زيدون ولغيرهما من الشعراء مثل هذا التعلق .

وكان هذا التعلق مجاراة للروح السائدة بتلك البلاد التى عبر عنها الكتاب كذلك ؛ روح التعلق بالوطن والاعتزاز بالبيئة وبطبيعتها ، والإشادة بجمالها وبكل ما فيها من علم وأدب وفن [2] . ورسالة الأديب الأندلسى أبو بحر صفوان بن إدريس التى أقام فيها بين البلاد الأندلسية مناظرة ، وجعل كل بلد منها يفخر بطبيعته وبفضله – مثل للتعلق الشديد بالبيئة .

٩

ويتصل بهذا وصف الأقاليم الطبيعية المختلفة ، ووجود شعراء إقليميين يمثلون جمال الطبيعة فى ديارهم . فابن زيدون يتغنى بقرطبة وزهرائها ، وأبو الحسن بن نزار وناهض بن إدريس

---

(١) راجع الأبيات التى أولها : فى أرض أندلس تلتذ نعماء ولا يفارق فيها القلب سراء .

(٢) الذخيرة : ج ١ ص ١١١ – ١١٦ ، ٣٨٤ – ٣٨٥ . ونفح الطيب : ج ١ ص ٨٠ – ٨٢ ، ص ١٠٦ ، ج ٢ ص ١٣٨ – ١٥٠ .

يتعلقان بوادى آش أو أشات ، ومطرف شاعر غرناطة ، وابن سفر المرينى وصّاف أشبيلية ، وابن الزقاق منشد بلنسية . وقد أعطانا المقرى صوراً مغرية لوادى أشات ووادى عذراء وسرقسطة وبرجة وقرطبة وأشبيلية وجبل طارق وغرناطة وجزيرة ميورقة وطليطلة وبلنسية وشلب وغيرها [1] . وهذه الصور ترسم تلك الديار على نحو فنى بديع ، لا يصدر إلا عن شعراء ينفعلون فيصورون ما جاشت به نفوسهم . وأى تمثيل للمكان أعظم من تصوير الشعر العربى للأندلس ، حتى ليعرف فيه الباحث البيئة بأنهارها وجبالها وسهولها ، وبما يحف بها من حياة اجتماعية ، وما يفيض من المرح والطرب ! .

ومن شعر أبى الحسن بن نزار فى وادى آش أو وادى الأشات ، وهو كما يعرّفه المقرى : «مدينة جليلة قد أحدقت بها البساتين والأنهار ، وقد خص الله أهلها بالأدب وحب الشعر» :

وادى الأشات يهيج وجدى كلما ... أذكرت ما أفضت بك النعماء
لله ظلك والهجير مسلط ... قد برّدت لفحاته الأنداء
والشمس ترغب أن تفوز بلحظة ... منه فتطرف طرفها الأفياء
والنهر يبسم بالحباب كأنه ... سلخ نضته حية رقطاء
فلذاك تحذره الغصون ، فيلها ... أبداً على جنباته إيماء

وإذا أغفلنا الصورة التى صورها فى البيت الرابع لمنظر سار ، وقد تمثل حسًّا فى نفس الشاعر ، نجد ذلك الوادى يملأه الشجر والزهر والماء ، ولا تكاد الشمس تصل إليه لوفرة ظله .

ومن قول ابن سفر فى نهر أشبيلية :

شق النسيم عليه جيب قميصه ... فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها ... هزءاً فضم من الحياء إزاره

وهذا وصف لا يتأتى إلا لشاعر أعجب بذلك النهر ومده الطويل وجزره ، وإن لم يستطع كل شاعر أن يصفه على هذا النحو البديع الذى تهيأ لابن سفر .

وما أبدع مطرف شاعر غرناطة حين يصف جبل طارق ، يقوم قبالة الجزيرة الخضراء كالناظر إليها ، ويفصل البحر بينهما فى استدارة فيقول :

يعرّض نحو الأفق وجهاً كأنما ... تراقب عيناه كواكب منزل

---

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٧٢ – ٧٣ و٧٥ و٧٦ و٧٧ و٨٠ و٨٣ و٨٦ و٩٧ – ٩٨ و١٠٥ و١٠٦ و٢١٨ و٢٢٠ – ٢٢٢ و٣٢٥ و٤٥٠ – ٤٧٦ ، ج ٢ ص ١٥٠ .

وأقود قد ألقى على البحر متنه فأصبح عن قود الجبال بمعزل

ونحوه مما لا يصدر إلا عن الحس والشعور الصادق قول ابن اللبانة يصف مدينة ميورقة بمائها الجارى من غير توقف :

بلد أعارته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشه الطاووس

فكأنما الأنهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كؤوس

وأى تحرر فى الشعر أعظم من أن الشعراء يمثلون مشاهداتهم ، ويعبرون عن شعورهم . ولايصدرون عن أمثلة تحتذى أو ماض يقلد ، وأن يتم لهم تمثيل بيئتهم بجمالها ومشخصاتها !

١٠

والحق أن شعراء الأندلس كانوا فى الطبيعة وشعرها يحسون ويهيمون ، ثم يعبرون عن حسهم وهيامهم . والمأثور من شعرهم يبين هذه الميزة فى وضوح . وكثيراً ما تربط الروايات بين الشعر وسببه والوصف ودواعيه ، وكثيراً ما خرج الشعراء جماعات وأفراداً يمتعون النفس بجمال الطبيعة ثم يعبرون عما فى أنفسهم . وكيف لا يصنعون وبيئتهم مرحة طروب ، ونفوس الأندلسيين ميالة للهو والمتاع ! ومن هذا وصف الوزير الكاتب أبى القاسم بن السفاط لمتاعه بالطبيعة فى أحد الأيام :

ويوم لنا بالخيف راق أصيله كما راق تبر للعيان مذاب

وللموج تحت الريح منه تكسّر تولّد فوق المتن منه حباب

وقد نجمت قضب لدان بشطه حكتها قدود للحسان رطاب

وأينع مخضرّ النبات خلالها كما أقبلت نعمى وراق شباب

فالشاعر يقرأ من صحيفة الطبيعة كما نقشت فى نفسه المرحة . وما أكثر ما وصف من أيام أخرى عبر فى كل منها عن حال من أحوال مسرته بالطبيعة (١) !

وتكثر فى كتابات الفتح بن خاقان الأمثلة لهذا النوع من إقبال الشعراء على الطبيعة يتنزهون ويصفون متاعهم بها . ويشيع الأمر كذلك فى كتابات ابن بسام والمقرى وابن الأبار وغيرهم . ويمثل إلهام هذه النزهات للشعراء ما رواه ابن حمديس قال : «صنع عبد الجليل بن وهبون

(١) قلائد العقيان : ص ١٧٩ – ١٨٢ .

المرسى الشاعر لنا نزهة بوادى أشبيلية ، فأقمنا فيها يومنا ، فلما دنت الشمس للغروب هب نسيم ضعيف غضّن وجه الماء ، فقلت للجماعة أجيزوا : «حاكت الريح من الماء زرد (١) » ، فأجازه كل واحد منهم بما تيسر له » .

كان الشعراء يقبلون على هذه المتنزهات بطبيعتها الفاتنة ، فيهيمون بها ، ويجدون فيها كل الغناء ، وفى جمالها أروع ما يلهم الشعراء ، فيتوفرون على وصفها . وقد يَصيح أحدهم معبراً عن هذه الفتنة ، كالشريف الأصم القرطبى إذا استهواه متنزه فحص السرادق فيقول :

ألا فدعوا ذكر العذيب وبارق ... ولا تسألوا من ذكر فحص السرادق
مجر ذيول السكر من كل مترف ... ومجرى الكؤوس المترعات السوابق
قصرت عليه اللحظ ما دمت حاضراً ... وفكرى فى غيب لمرآه شائق
أيا طيب أيام تقضت بروضه ... على لمح غدران وشم حدائق
إذا غرّدت فيها حمائم دوحها ... تخيلتها الكتّاب بين المهارق

وكثيراً ما تغنى الشعراء بنزهاتهم فى متنزهات قرطبة وقصورها البديعة : الرصافة ، والمرج النضير ، وفحص السرادق ، والمنير ، والسد وغيرها ، ونظموا فيها القصائد والموشحات (٢) . وكثيراً ما خرج الملوك والولاة بالشعراء إلى المتنزهات ، فيستمعون إلى أشعارهم فيها . وكثيراً ما تقارض الشعراء الأوصاف الطبيعية البديعة .

وهكذا لم تلبث الأندلس أن صارت منبعاً من أهم المنابع العربية لشعر الطبيعة ، ولم تلبث أن أخرجت شعراء يمثلون بيئتها ، وينبذون الأفكار الشعرية القديمة القائمة على شكوى الزمن ، وبكاء الغربة والحنين إلى المشرق .

١١

ومن مظاهر التحرر لشعر الطبيعة فى الأندلس ، الفتنة بالبحر والتفنن فى أوصاف المياه . فقد كان العرب بطبعهم وبحكم بيئتهم ينفرون من البحر ، ويخشون ركوبه ، ويتفادونه فى غزواتهم ، ويرون اعتراضه لطريقهم حائلا دون التقدم أى حائل . لكنهم لم يلبثوا أن أخذوا

(١) قيل أجازته جارية كانت بالشط : «أى درع لقتال لو جمد .
(٢) نفح الطيب : ج ١ ص ٢١٢ – ٢٧٢ .

يتحررون من هذه الأفكار شيئاً فشيئاً ، وكانت فتوحات فارس ومصر والأندلس من عوامل هذا التحرر ، ومن أهم مظاهره فى الوقت نفسه .

ولهذا رأينا الشعراء يتجهون إلى البحر ويصفون الأساطيل والسفن الجارية فيه . وقد تفنن كثيرون منهم فى أوصافها وبخاصة أبو عمر القسطلى وابن خفاجة ، وابن الأبار ، وابن وهبون . ومن أبرع أوصافهم للسفن قول ابن يزيد بن عبد الله بن أبى خالد :

ويالليجـــوارى المنشآت وحسنها ... طوائر بين الجو والماء عوما
إذا نشرت فى الجو أجنحة لها ... رأيت به روضاً ونوراً مكمما
وإن لم تهجه الريح جاء مصافحاً ... فمدت له كفا خصيباً ومعصما
مجاذف كالحيات مدت رؤوسها ... على وحل فى الماء كى تروى الظما
كما أسرعت عدًّا أنامل حاسب ... بقبض وبسط يسبق العين والفما
هى الهدب فى أجفان أكحل أوطف ... فهل صنعت من عندم أو بكت دما !

لكنهم فى هذه الأوصاف جميعاً لم يجاوزوا الشكل ولم ينفذوا إلى أسرار البحر يرسمونها ويضفون عليها ألوان الفن ، كما فعلوا فى غيرها من ألوان الوصف لمظاهر الطبيعة . بل إن بعض الشعراء كانوا حين يركبون البحر يركبونه على خوف ، ويتصورونه سبيل المضطر ، وتتراءى لهم الأهوال فى مركبه (١) ، ولعل سبب ذلك أن الملاحة لم تكن قد أمنت ، وأنهم لم يكونوا كثيرى الأسفار البحرية .

وقد رأينا فى الشام عناية بالمياه والأنهار الجارية استجابة لداعى البيئة ، وهذه العناية تتم فى الأندلس حيث الأنهار طويلة عديدة ، والسفن وفيرة ، والنزهات النهرية شائقة . ولعل أديب أشبيلية أبا القاسم بن العطار يمثل هيام شعراء الأندلس بالأنهار ، وإقبالهم عليها فى كل وقت يمتعون النفس والحس . وقد روى ابن خاقان ما قاله ، أو بعض ما قاله فى النهر أثناء نزهته به فى يوم واحد ، فأعطانا بهذا صورة من استهواء النهر للشاعر ، يمضى بجواره النهار كله ، ويجد فى كل وقت فتنة طريفة له ، وجمالا متجدداً (٢) .

---

(١) الذخيرة : ج ١ ص ٧٤ و٣٩٤- ٣٩٥ .

(٢) قلائد العقيان : ج ١ ص ٢٩٧- ٢٩٨ ، ونفح الطيب : ج ٢ ص ٢٨٤- ٢٨٥ .

١٢

وتمتاز الأندلس بالنزعة القصصية فى الأدب ، وتشيع فى الرسائل النثرية ، ويظهر أثرها فى الشعر [١] . ولا ريب أن النزعة القصصية قد ظهرت فى الأدب العربى منذ وقت بعيد ، ولعل اختلاط الساميين بالآريين فى الأندلس ، وأثر هؤلاء فى الأدب العربى كان من عوامل الشيوع لهذه النزعة فى نثرهم ونظمهم . وشعر الطبيعة الأندلسى يتميز بظهور أثر الميل القصصى فيه ظهوره فى فنون الشعر الأخرى . ومن ذلك صورة السفرجلة فى شعر جعفر بن محمد المصحفى ، فهذه الصورة عبارة عن تاريخ حياة السفرجلة ، مذ كانت تختال على شجرتها بألوانها وريحها وروحها ، إلى أن ذبلت فى كف الشاعر ، قال :

ومصفرة تختال فى ثوب نرجس ... وتعبق عن مسك ذكى التنفس
لها ريح محبوب وقُوّة قلبه ... ولون محب حلة السقم مكتسى
فصفرتها من صفرتى مستعارة ... وأنفاسها فى الطيب أنفاس مؤنس
وكان لها ثوب من الزغب أغبر ... على جسم مصفر من التبر أملس
فلما استتمت فى القضيب شبابها ... وحاكت لها الأوراق أثواب سندس
مددت يدى باللطف أبغى اجتناءها ... لأجعلها ريحانتى وسط مجلسى
فبزت يدى غصبا لها ثوب جسمها ... وأعريتها باللطف من كل ملبس
ولما تعرت فى يدى من برودها ... ولم تبق إلا فى غلالة نرجس
ذكرت بها من لا أبوح بذكره ... فأذبلها فى الكف حر التنفس

ومن ذلك وصف أبى محمد بن سفيان للكواكب ، فقد اصطنع الأسلوب القصصى فى توجيه الخطاب إلى عيسى بن ليون ، وتخيُّله لنفسه وله نازلين على هام الكواكب ، يركبان بعضها ويوجهانها حيث شاءا ، ويقتحمان على بعضها المنزل ، فيمتعان النفس غير حافلين بعذل العاذل ولا بصولة الشجاع [٢] .

* * *

(١) الذخيرة : ج ٢ ص ٤٠٣ - ٤٣١ .

(٢) راجع الأبيات التى أولها : أبا عيسى ! أتذكر حين كنا ... على هام الكواكب نازلينا ؟ !

هذه هى جملة المميزات لشعر الطبيعة فى الأندلس : تمثيل للبيئة ، وصدور عن الحس والمشاهدة ، وروح مرحة ، وميل قصصى ؛ وجماعها صدق العاطفة . وترتب عليها أن البديع لم يظهر فى شعرهم إلا شفافاً ؛ لا يحجب فكرة ، ولا يستر معنى ، بل يزيد فى الرواء والبهجة . ولا يعنى هذا أنهم تجردوا من ماضى شعر الطبيعة ليخلقوا حاضراً جديداً ، لكنهم طبعوا هذا الماضى بطابعهم ، وأخضعوه لمقوماتهم الخاصة . ولعل فى دراسة شعر الطبيعة عند ابن زيدون وابن حمديس وابن خفاجة ما يزيد هذا العرض تفصيلا وإيضاحاً .

١٣

ابن زيدون

ولد أبو الوليد بن زيدون بقرطبة سنة ٣٩٤هـ ، فى عهد الدولة العامرية ؛ فهو أندلسى المولد والبيئة ، وإن كانت أسرته قرشية من بنى مخزوم . وكانت له يد فى سقوط الدولة الأموية ودولة بنى حمود والعلويين ، وفيما أعقب هذا من قيام ملوك الطوائف . ولهذا قربه ابن جهور ، وجعله صاحب وزارتيه ، لكنه لم يلبث أن أقصاه وسجنه لدس الدساسين الذين نفسوا عليه القرب من ولادة ؛ فاتهموه بالعمل لإعادة الأمويين وهو الذى حاربهم من قبل . وبعد موت ابن جهور اتصل بخلفه ، واستمر فى نشاطه السياسى حتى قرب من المعتضد صاحب أشبيلية ، فأسند إليه وزارته . وظل فى هذا المنصب حتى مات سنة ٤٦٣هـ ، وسط دسائس كادت تفضى به إلى مثل ما أفضت من قبل .

ويعتبر ابن زيدون من شعراء الطليعة فى عهد التحرر ، وقد استولت على حسه طبيعة الأندلس وبخاصة قرطبة . لكن هناك حادثاً قد اتصل به ، وأثر فى شعر الطبيعة عنده أشد تأثير ؛ ذلك هو حب «ولادة» ، ملك عليه هذا الحب نفسه ، وجعله الحبس عامين شديد الذكر له ، والتغنى بالطبيعة فى ظلاله . ومن هنا امتاز بوصف الطبيعة فى رحاب الحب .

تثير الطبيعة فى نفسه معانى الهوى ، وتحرك لواعجه ، وتصل بينه وبين الحبيبة . فإذا عادت الرياح إليه من أمكنة الأحبة استراح إليها واطمأنت نفسه ؛ وإذا تعطرت الصبا بشذاهم تعلقت بها روحه ؛ وإذا ابتسم البرق وأضاء بكى من طرب إلى الحبيب (١)

(١) راجع الأبيات التى أولها : وإنى أراح إذا ما الجنو ب راحت بريا جنوب العلم

وإذا اضطرم الشوق فى نفسه تمنى على الريح أن تحمل السحب المطيرة إلى معاهد الحبيب حتى تزدهر أزهارها وتعود إليه الصبا محملة بشذاها ، فيكون برداً وسلاماً على كبده الحرى.

وهو يطلب إلى سارى البرق أن يوقفه على مقدار تعلق الحبيب ، وهل تعنيه ذكرى الشاعر مثلما تعنى الشاعر ذكراه ، كما يطلب إلى نسيم الصبا أن يبلغ التحية على البعد من كان قربه يحييه (١). وهو فى هذا يمتزج بالطبيعة أشد امتزاج حتى يخال اعتلال النسيم شكواه (٢). ويرى الهوى فى طلوع النجوم ، والمنى فى هبوب النسيم (٣)، وغناء البلبل بكاء للهجر (٤).

ويبدو الامتزاج على أشده ، حين ينعى على الغمام ألا يبكيه ، وعلى النجوم ألا تقيم عليه مأتماً ، مع أنها أشكاله ونظائره ، ومع أن الإنصاف كان يقتضيها الأسى الشديد لحاله . ويقوم تعلقه بالطبيعة على أساس من الحب ؛ فالبرق يستهويه صبوة إلى برق الثغر، ورنين الحمائم النائحات على الشجر يذكره برنين عقد الحبيبة اللؤلؤى (٥) ، والبدر يضىء من تحت السحاب الرقيق يذكره بوجهها يُضىء تحت النقاب (٦)، بل إن الحبيب لأجمل من البدر وأبهى ، ولو أنه بات عنده ما تطلع إلى قمر السماء (٧) ، وهو يزرى بالغصن المورق إن خطر ، وبالظبى الغرير إن نظر (٨) . لكن هذا الضرب من تفضيل الحبيب على الطبيعة لا يعدو المبالغة البيانية ، والمشاكلة بين الجميل والجميل ؛ ولهذا يجمل الحبيبة بتصوير الجمال الطبيعى فيها ، فيجعلها شمساً وجنة وروضة تقدم للبصر الورد والنرجس (٩) ، ويتصور سواد الليل فى شعرها ، وصفاء السماء فى لبتها وصدرها ، ولمعان الكواكب فى قلائدها ، والجوزاء فى قرطها ، والثريا فى وشاحها المتعرض .

فالطبيعة والحبيب متشابهان فى الجمال . وما أروع الحسن حين يجتمعان ! إنهما إذن يتشاكلان ، ويأسران معاً قلب الشاعر ، ويملكان عليه الحس . وقد عبر فى روعة عن فتنة

(١) ديوان ابن زيدون ؛ نشر الأستاذ كامل كيلانى : ص ٦ .
(٢) الديوان : ص ٩ .
(٣) نفس المصدر : ص ٥٠ .
(٤) نفس المصدر : ١٠٧ .
(٥) نفس المصدر : ص ١٢٦ .
(٦) الديوان : ص ٢٦٤ .
(٧) نفس المصدر : ص ٢٦٩ – ٢٧٢ .
(٨) نفس المصدر : ص ٩٨ .
(٩) نفس المصدر : ص ٦ – ٧ .

الطبيعة فى ظلال الحب ، واشتباكهما على نحو يثير فيه جمال الأولى معانى الثانى فقال :

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال فى أصائله كأنه رق لى فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضى مبتسم كما شققت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت بتنا لها ، حين نام الدهر ، سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه إذ عاينت أرقى بكت لما بى فجال الدمع رقراقا
ورد تألق فى ضاحى منابته فازداد منه الضحى فى العين إشراقا
سرى ينافحه نيلوفر عبق وسنان نبه منه الصبح أحداقا
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا إليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقا

وهو هنا بين عاطفتين : عاطفة الماضى الجميل فى الوصل تكسبه الطبيعة البديعة مزيداً من البهاء والحسن ، وعاطفة الحاضر المحروم يكسو الطبيعة ثوباً من القتامة والظلام ؛ فأتت صورتها جميلة فى حزن وبديعة فى أسى ، كالحسناء فى لباس الحداد ، وأخذت بطرف من انطلاق الماضى وأسر الحاضر . يتمثل الماضى بانطلاقه فى طلاقة الأفق ، وصفاء وجه الأرض ، وابتسام الروض ، وطرب الزهر ، وتألق الورد ، وإشراق الضحى ، كما يتمثل الحاضر بأسره فى اعتلال النسيم وإشفاقه ، وبكاء الزهر ، وجولان دمعه الرقراق ، ونعاس النيلوفر . وجو الذكرى يثير فى نفس الشاعر الجوى ، وفى نفس القارئ الأسى والإشفاق والتأثر بهذا الفن الرائع يصدر عن الشعور الصادق والإحساس العميق .

ولما كانت قرطبة مسرح هواه وميدان حبه ، فقد ظفرت أوصافها الطبيعية منه بأوفر حظ وجمالها بأوفى نصيب ، وكان هتافه بها حين بانت عنه عميقاً يتمثل فى نحو قوله :

أقرطبة الغراء هل فيك مطمع ؟ وهل كبد حرى لبينك تنقع !؟

ويتمثل على نحو أشد حين يعجب من الحياة بعيداً عنها ، وفيها ولد واكتمل هواه وحبه ، فيقول :

أليس عجيباً أن تشط النوى بك ؟ فأحيا كأن لم أنس نفح جنابك ؟
ولم يلتئم شعبى خلال شعابك ولم يك خلق بدؤه من ترابك
ولم يكتنفنى من نواحيك منشأ !!

ولهذا التعلق الشديد بالمنشأ ومعهد الحب ، صور طبيعتها أجمل تصوير وأبهاه ، وبدت فى ناظره جميلة بنهارها وليلها ، وتربها ، وغصنها ، وروضها ، وجوها ، ورباها ، وأحلامها ، وكل ما فيها ، وتعلق بها واستولت على نفسه دائماً ، ولم تغب عن ذاكرته قط . وكيف يفعل غير هذا ، ونفسه ليست لها طمأنينة ومراد فى كنف أوطأ من الروض والزهر ، وفى معهد أحسن من معهد الصبوة ! .

* * *

فابن زيدون فتن بالطبيعة وأحب ولادة ؛ فمثل الطبيعة يجملها الحب ، ومثل الحبيب جامعاً لمفاتن الطبيعة ، ثم حالت الأحداث بينه وبين المتاع بالطبيعة وبالحبيب : فعاش على ذكراهما ، وأضفى على الطبيعة ثوب الأسى الذى يسربله ، وغشاها بلون الحرمان الذى اصطبغت به نفسه .

وقد استفاد من صور السابقين من لدن امرئ القيس ، كما يبدو فى بعض الأمثلة السابقة ، وفتن بطريقة البحترى حتى لقب ببحترى المغرب . ولم يكن عجباً من شاعر مثقف أن يتأثر بثقافته ، لكنه على ذلك كله قد أكسبها شخصيته ، وصدر فى عامة صوره عن نفسه ، ومثل شعوره . وكان لابن زيدون أثر واضح فى شعر الطبيعة الغربى ؛ ذلك الشعر الذى يربط بين الطبيعة والحب فى كثير من الأحيان .

١٤

ابن حمديس

(١) ولد أبو محمد عبد الجبار بن حمديس سنة ٤٤٧ هـ ببلدة «سرقوسة» فى جزيرة صقلية ، ويتصل نسبه بقبيلة الأزد الكهلانية . وتمتاز صقلية بطبيعتها الغنية ، ووديانها الخصبة ، وأنهارها الجارية ، وجناتها المشرقة ؛ فأثارت سكانها من أقدم العصور إلى التغنى بحياتها الريفية . وقد حكم العرب هذه الجزيرة بين سنتى ٢١٩ ، ٤٦٤ هـ حكما اكتنفته الحروب والفتن ؛ تنشب بين جماعات العرب الفاتحين تارة ، وبين سكان الجزيرة ، من عرب وروم ، والغزاة تارات .

وكانت ولادة ابن حمديس بها فى أواخر الحكم العربى . ولما اشتد اضطهاد النورمانديين

الفاتحين لأصحاب البلد القدماء هجرها ، كما هجرها غيره ، إلى إسبانيا سنة ٤٧١ هـ ، فلاذ بكنف المعتمد بن عباد بأشبيلية . لكن يوسف بن تاشفين لم يلبث أن اعتقل ابن عباد ، بعد أن أعانه بجنوده على حكم الإسبان ، فى قلعة « أغمات » بمراكش ، فهاجر معه ابن حمديس إلى بلاد المغرب ينظم له الشعر الحزين . ولما توفى ابن عباد سار ابن حمديس إلى قرية المهدية الأفريقية ، وأقام فى كنف الأمير تميم بن المعز ، فابنه يحيى ، فحفيده على من بنى باديس ، ثم انتقل إلى جزيرة ميورقة حيث توفى سنة ٥٢٧ هـ .

وولادة ابن حمديس بصقلية كانت لا ريب وثيقة الصلة بعنايته الوصفية فى شعره ، لكن حياته فى هذه البيئة الأعجمية التى لم تستقر العربية فيها ، ولم تتح لها حياة وطنية مثلما أتيح لها بالأندلس ، والتى سادتها الثورات والفتن ، وبخاصة فى وقت الاضمحلال الذى ولد فيه — هذه الحياة جعلته يعيش بلغته وعقله وثقافته كَلاًّ على العربية فى بيئاتها المختلفة ، كما يعيش مواطنوه فى تلك الجزيرة . ولم تتح لهم الثورات ، مع التعصب للأصل شأن الغرباء فى أغلب الأحيان ، تمام المتاع بهذه البيئة ، وحسن التعبير عن جمالها .

ولما رحل إلى الأندلس وإلى أفريقية ، وهى وثيقة الصلة بالأندلس ، اتصل بالنزعات الأدبية فى تلك البلاد ، وشارك فيها وعبر عنها ، كما عبر عن نزعات سابقيه من القدماء والمحدثين .

وهذه الحياة هى التى هيأته لأن يكون مثال الشاعر الذى يغنى بأساليب غيره من الشعراء ، وإن امتاز بإخضاع الأصوات لتأليف حنجرته ، وتشكيل المعانى على مثال شعوره وحسه .

(ب) فابن حمديس من أصل عربى ، وأقام فى موطن أعجمى يحارب العروبة ، وتهيأت له مصاحبة العرب فى قفار المغرب وصحاويها [1] ، فأدى به ذلك إلى تعلق بالعرب وما يتصل بهم من البيئة وألوان التفكير ، والمبالغة فى مدحهم ، والفخر بنسبة وبهم ، والمعرفة بحياتهم البدوية . ومن هنا نجم تغنى ابن حمديس بالطبيعة البدوية ، ولعله من الشعراء القلائل فى الجاهلية والإسلام الذين بالغوا وأطالوا فى الوقوف بالأطلال .

وفى قصيدته :

مرابعهم للوحش أضحت مراتعاً فقف صابراً تسعد على الحزن جازعاً [2]

---

(١) ديوان ابن حمديس ، ط روما : ص ٣٦٣ .

(٢) نفس المصدر : ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

وهى ستة عشر بيتاً ، أخلص الحديث للأطلال ، فأجرى الدمع ، ووصف المعالم الباهتة ، وبحث عن آثار الأحبة بينها ، واشتد هيامُه ، وتمثُّله لمعانى الفناء ، وتذكُّره للحب الذاهب فى غير رجعة ، ثم تحدث عن العلا والبأس . وإذا وجدنا آثار القدماء فى بعض شعره ، فإنا نجد كذلك آثار المحدثين . لكن هذه الآثار تبدو باهتة لا تظهر إلا بقدر ظهور أثر الثقافات المختلفة فى إنتاج الكاتب والشاعر ، تصدر عنه بعد امتثالها . ولهذا يحس القارئ بأنه يطالع شعراً حديثاً فى موضوع قديم . وهذا اللون من المزاوجة شائع فى شعره (١) .

على أن الجمع بين معانى القدماء ومعانى المحدثين يبدو على أتمه حين يتحدث عن الأطلال حديثاً مؤثراً ، ثم يتّبع مذهب أبى نواس فى السخرية منها والهتاف بالخمر فى ظل الطبيعة الوارف . وينطبق هذا كذلك على أوصافه الأخرى للخيل والإبل والغيث والبرق والبيداء والصيد ، بل إن ابن حمديس حين يصف الزرافة يتبع طريق امرئ القيس فى وصف الفرس ، ويصطنع وزن المعلقة وقافيتها كذلك ، ويفتتح الوصف معلناً بشطر المطلع الثانى عن هذا التأثر ، فيقول :

ونوبية فى الخلق منها خلائق متى ما ترق العين فيها تسهّل

ومنها قوله :

لها فخذ أقرام وأظلاف قرهب وناظرتا رئم وهامة إيّل

وسار الوصف على طريقة امرئ القيس فى وصف الخلق مفصلا ، ثم حرمه القصد إلى التقليد من براعة ابن حمديس الوصفية ، وأدى به آخر الأمر إلى أن يقحم على الوصف عبارات امرئ القيس معلناً اسم الشاعر الذى احتذاه :

وكم منشد قول امرئ القيس حولها : أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل ؟

ويظهر أن الجاهليين كانوا مثله الأعلى فى الشعر ، حتى إنه مدح شاعراً معاصراً ، فذكر أنه لا يناظره سوى زهير :

فيا فارس الشعر الذى مات قرنه بموت زهير فى ارتجال غرائبه

وأمر هذه الأوصاف واضح ما دام الشاعر معتزاً بالعرب ، شديد التعلق بأدبهم ، مفتوناً بنظام عيشهم ، وإن لم يستطع الحياة بمعزل عن النهضة الأدبية الحديثة وتطور الأساليب الشعرية فيها .

---

(١) الديوان : ص ٢٤٨ ، ٢٦١ - ٢٦٣ ، ٢٦٨ - ٢٦٩ ، ٣٦٢ - ٣٦٣ .

والأمثلة على هذه الفتنة كثيرة فى ديوانه [١] . ومنها الهيام بنجد والصبا وهند فى قصيدته :

أمسك الصبا أهدت إلىّ صبا نجد وقد ملئت أنفاسه لى بالوجد

وذكرُ العيس والبيداء فى الحنين إلى صقلية موطنه الأول فى قصيدته :

لأمر طويل الهم نُزجى العرامسا وتطوى بنا أخفافهن البسابسا

وتعلقه بالناقة فى قصيدته :

ومن سفن القفر سباحه من الآل قفراً إذا ما اعترض

ومن ذلك إطراؤه الشديد لفضائل العرب ، وتجميله لحياتهم فى قصيدته :

رعا ورقُ البيض الذى زهره دم يكم ورقا عن زهره الروض يبسم

وكما ردّد ابن حمديس أصوات القدماء فى الطبيعة ردد كذلك أصوات المحدثين .

(جـ) وقد رأينا فيما سبق محاكاة ابن حمديس لأبى نواس فى الهتاف بالخمر ، والدعوة إلى نبذ الوقوف بالأطلال والواقع أن هذا الشاعر تتوثق الصلة عنده بين الطبيعة والخمر ؛ فهى تجلى محاسن الطبيعة أمامه ، وتثير بوضوحها وبغموضها إلى الخمر .

شرب عند طلوع الفجر فى روضة يحييها جدول تنىء عليه القضبان الخضراء ظلالها ، وشرب عند تنفس الصبح إذ لاح نجمه على غدير تصقل الصبا متنه ، وتظهر ما فى ضميره ، وتجرحه الحصباء إذ يمر بها فيشكو الأوجاع فى خريره ؛ ودعا إلى الشراب قبل أن ترتشف الشمس ريق الغوادى من ثغور الأقاح ، ويطوى الظل بساطه ، وإلى أن يكون الشراب فى روضة غناء على قضبانها الطيور الفصاح بين نائح مطرد النغم ، ونشوان متنوع الألحان ، تتشابه أغصانها مع قدود الملاح ، كأن بها عبيراً مفتوناً يطيب الريح أثناء مرورها ؛ وشرب فى حديقة فواحة الزهر مخضلة ، تجودها السحب كل يوم ، وتنظم فيها أكف الغمام جماناً لا تنظمه أكف الإنسان ، يسمع فيها مختلف اللحون من الطيور الفصاح على عجمتها ، تغنى على أعاريض يعرفها الخليل ، لكنه أهملها فلم يعرفها الناس ؛ وشرب عند المغيب والشمس تلبس من الغيم نقابا ، والقطر ينظم للروض عقود اللآلئ ، والبروق تشعل النيران فيطفئها الغيث ، والهواء قد رق ، والنسيم قد اعتل ، والثلج قد انتثر انتثار الكافور والقطن ، والسماء قد أمطرت الأرض مساء ، كما أحيتها من قبل صباحاً ، ثم أقبل سواد الليل فمحاه القمر ، واستوى فى علياته يدعو الناس إلى

---

(١) الديوان : ص ١٥ – ١٦ و٤٩ – ٥٣ و١٠٦ – ١٠٧ و١١١ و١٢٤ و١٦١ و٢٤١ و٢٤٨ و٢٥٦ و٢٨٧ و٣٢٦ و٣٥٩ و٣٦٣ – ٣٦٦ .

الشراب ؛ وشرب على إيماض برق كأنه نور مصباح شب فى سواد الليل ، قد سرى يسوق السحب السوداء شرقاً وغرباً ، وكأنه ذو سياط من تبر تتطاير قطع منها ؛ ودعا إلى الشراب ونسيم الرياض ذكى عليل ، وعلى مرأى من النارنج ذى الشكل البديع ، وبجانب بركة النيلوفر باحمرارها واخضرارها كأنما أخرجت أزهارها من الماء ألسنة النار(١) .

وهكذا لا حق الطبيعة بالخمر فى جميع الأوقات والأحوال الطبيعية ، وأبان عن فتنة بالطبيعة فى مظاهرها المختلفة . ولم يفضل الغبوق أو الصبوح كغيره . فالطبيعة لها من مظاهر الحسن فى كل آن ما يغرى بها وما يدفع إلى الطرب لمرآها . ومعانيه وإن كان بعضها قديماً يمتاز بعنصر الانفعال الذى يسودها ، وبالامتثال الذى يخلقها خلقاً جديداً ، وبالابتكارات فى كثير من التفاصيل .

وقد يمثل الشاعر مختلف مظاهر الطبيعة الجميلة فى جو الخمر كما فى قصيدته :

طرقَت والليلُ ممدود الجناح مرحباً بالشمس فى غير صباح

فقد دعا إلى الخمر واحتج لها ، ثم دعم الاحتجاج بقوله :

فالقضيب اهتز والبدر بدا والكثيب ارتج والعنبر فاح
والثريا رجح الجو بها كابن ماء ضم للوكر جناح
وكأن الغرب منها ناشق باقة من ياسمين أو أقاح
وكأن الصبح ذا الأنوار من ظلم الليل على الظلماء لاح

فكل ما فى العالم الجميل قد تحرك وثار ، وبدت زينته ، وظهرت فيه مطربات النفس الشاعرة ، أفلا يحق للإنسان أن يقبل على الخمر فيطرب مع هذا العالم الطروب ؟

وبعد أن يدعو إلى الخمر من جديد يصف مكانها فيقول :

فى حديق غرس الغيث به عبق الأرواح موشى البطاح
تعقل الطرف أزاهير به ثم تعطيه أزاهير صراح
أرضع الغيم لباناً بانه فتربّت فيه قامات الملاح
كل غصن تعترى أعطافه رعدة النشوان من كأس اصطباح

ثم يتحدث عن لون الأغصان ، ورائحة الترب ، ورش الرياح بماء الورد . وبهذا تختم القصيدة .

---

(١) الديوان : ص ٧ و١٤ و١٩ و٣٩ و٤٤ و٥٩ و٧٣- ٧٥ و٨٤ و١٥٨ و٣٧٠ .

وقد أوجز الشاعر جمال الطبيعة المتنوع فى هذه الخمرية . دعا لها تحت قبة السماء بزينتها الأخاذة ، كما دعا فى جو الأرض المزدهرة بالغصون والأزاهير . وبعض هذه المعانى قديم الأصل ، لكن الشاعر قد أقبل مع ثقافته الشعرية على الطبيعة ، فتأملها وأمعن التأمل ، ثم استخرج من المعانى أروعها ، ونظم من الأخيلة أجملها . ولهذا يقرأ الإنسان فى شعره سلطان الطبيعة على النفس ، تأسر البصر بعض أزاهيرها ، ثم تمنح الحرية للنفس . ويطالع فتنة الروض التى تبلغ بالشاعر أن يتخيل قامات الملاح بعض نباته ، فلا يلبث أن يؤخذ بهذا التوليد العجيب للمعانى ، وبذلك الشعور الفياض يجمّله فن بارع .

(د) وإذا كان ابن حمديس يعنى بتصوير الطبيعة حية ، تتجلى فيها الحركات النفسية والوجدانية ، فإن له عناية كذلك بتصوير الطبيعة اللامعة على مثال ابن المعتز فى العناية بتجلية الشكل . وتبدو هذه العناية فى وصف الزهر والقمر والنجوم ، أى فى الأشكال المشرقة للأرض والسماء . لكنه حين يصف الزهور لا يعرضها فى ألوان براقة على مثال ابن المعتز حين يبالغ فى استعارة أشكال الذهب والفضة واللآلئ والأحجار الكريمة اللامعة ، وإنما يعرضها فى أشكال أقل بريقاً ، وإن أخذت من اللمعان بنصيب .

ومن قوله فى النيلوفر :

اشرب على بركة نيلوفر محمرة النوار خضراء
كأنما أزهارها أخرجت ألسنة النار من الماء

وتبدو العناية بالشكل على نحو أتم فى تصوير مظاهر السماء . وقد وصف ابن حمديس القمر فى حالاته الهادئة والخافتة ، وصور البدر فى حال الخسوف معنياً بالشكل كذلك .

وما دام ابن حمديس يأخذ من المنازع الشعرية بنصيب ، وابن هانئ قد تفنن فى وصف النجوم وإظهار البراعة فى تكرار التشبيهات – فقد قلده كذلك ، وعنى بتكرار الصور السماوية فى أنماط بيانية مختلفة ، لكنه أفاض عليها من روحه المتأملة ، وحسه المرهف .

ومن ذلك مقطوعته التى مثل بها الليل والثريا والسها وطلوع الفجر ، وشروق الشمس ، ومطلعها :

وليل رسبنا فى عباب ظلامه إلى أن طفا للصبح فى أفقه نجم

وهذا تصوير جميل يعبر عن بيئة الشاعر البحرية ؛ إذ جعل الليل محيطاً مظلماً ، والخلق

رواسب فيه ، ونجم الصبح طافياً على سطحه ؛ كما يعبر عن إجلال الشاعر للطبيعة ، وتمام امتثاله لرهبتها مصورة فى ظلام الليل .

ويبدو احتذاء ابن هانئ فى قصيدته :

أثن بكت ورقاء فى غصن بان تصدعت منك حصاة الجنان؟

فقد وصف ليل الشجى ، وما يتراءى فيه من صور سماوية ، وكرر «كأنها» إحدى عشرة مرة تباعاً ، متخيلا للنجوم صوراً متنوعة من الجبن والإقدام والقتال والنزال ، والروض والبحر .

(هـ) والواقع أن ابن حمديس كان مفتوناً بالطبيعة . وكانت هذه الفتنة طبيعية فى شاعر نشأ بصقلية ، الجزيرة الجميلة ، ورحل إلى الأندلس المشرقة ، وعاش فى عصر أقبل الشعراء فيه على مباهج الطبيعة يمتعون النفس بها ، ويملأونها بشراً باستجلاء محاسنها ، وينظمون نزهات لهذا الغرض . وفى هذه الشركات كانت محاسن الطبيعة تثير الشاعر وتشجيه .

وهناك أمثلة عدا ما سبق لفتنته بالطبيعة تتجلى فيها روح الابتكار والإبداع . ومن ذلك وصفه لنهر ينبعث من عين ماء فى مقطوعته التى مطلعها :

ومرو صدى الروضات يحسب ذائباً على الأرض منه جملة تتبعّض

وهو مطلع ينطق بالتأمل والإمعان فى صور الطبيعة ، ثم يصف جريه وانسيابه وانحداره مرتعداً ، وينشد هذه الأبيات الواضحة الدلالة ، والتى ينطق أولها بمبلغ تعلق الشاعر بالطبيعة واندماجه فيها :

كأن له فى الجسم روحاً إذا جرى به نهضه والجسم بالروح ينهض
وما هو إلا دمع عين كأنها لطول بكاءٍ دهرَها لا تغمّض
إذا سرحت للسقى من كل جانب رأيت بقاع الأرض منه تروّض
يقيم عليها الإنس والصبح مقبل ويرحل عنها الوحش والليل معرض

فيجعل هذا الغدير إذا جرى روحاً للجسم ينهض به ، ثم يستأنف فيقتبس مادته من نفسه الحزينة ، ويجعل ماءه دمعاً لعين لا ينقطع بكاؤها أبداً . وهو يحيى الأرض ويجعلها جنات ، ولا يبخل بهادة الحياة على مخلوق إنساً أو وحشاً ؛ فالإنس يقيم عليه فى النهار ، والوحش يرِده فى الليل .

وعبر الشاعر فى موضع آخر عن فتنته بالنهر وتعلقه بمرآه ؛ حين ذكر أنه يرده فى كل وقت :

فى مغرب الشمس ، وحين تميل النجوم ، وفى مشرق الشمس[١] وهكذا يصدر عن حسه وتجاربه كل الصدور .

وهذه الفتنة تبدو كذلك حين يفرد بعض القصائد لأوصاف الطبيعة والإلمام ببعض مظاهرها ، مثل وصفه للبرد والغيث والبرق والرعد والروض والصبح والشمس فى قصيدته :

نشر الجو على الأرض برد أى در لنحور لو جمد

وبعد أن أفاض فى وصف جمال تلك المظاهر الخلابة ، ختم الوصف بهذه الأبيات التى تفيض حباً للطبيعة وهياماً بها :

فتثنى الغصن سكراً بالندى وتغنى ساجع الطير غرد
وكأن الصبح كفٌّ حُلّيت فى ظلام الليل بالنور عقد
وكأن الشمس تجرى ذهباً طائراً فى صيده من كل يد

وتبدو الفتنة بالطبيعة كذلك حين يدخل أوصافها فى أغراض الشعر الأخرى . فأوسع أغراض الشعر عنده المدح ، ويليه الوصف ، لكن الطبيعة تنساب فى جملة أغراضه ، فيصف الطبيعة فى الغزل ، بل يصور محاسن الحبيب على مثال محاسن الطبيعة ، ويصفها فى المدح بل أكثر شعره المدحى مصبوغ بصبغة الطبيعة ، ويصورها قوية فى الحماسة والفخر ، ويصورها حزينة باكية فى الرثاء .

* * *

فابن حمديس قد صور ما سبقه من المعانى ، بعد أن امتثلها وأحسها موجودة فى الطبيعة ؛ فصدرت عنه صدور الخلق عن الخالق ، وأضفى عليها من فيض نفسه الشاعرة . وكان له من تصوير الفنانين للطبيعة فى تماثيل ورسوم ما يزيده إحساساً بجمالها [٢] .

ولولا روح التشاؤم التى سيطرت عليه ، حتى شق عليه ركوب البحر ، وهو ذو النشأة البحرية [٣] ، وشكا الأسفار والدهر [٤] — لولا ذلك لكان له فى الطبيعة مكانة فوق مكانته الرفيعة ، وحظ أوفر من حظه الكبير .

---

(١) الديوان : ص ٢٣ — ٢٤ .
(٢) نفح الطيب : ج ١ ص ٢٢٩ — ٢٣١ ، الديوان : ص ٤٤٠ — ٤٤٤ .
(٣) الديوان : ص ١٠ .
(٤) الديوان : ص — ١٨ .

١٥
ابن خفاجة

(أ) وإذا كان ابن حمديس يمثل الشاعر الذى امتثل الثقافات قديمها وحديثها ، وتعلق بالماضى العربى فأحياه فى شعره ، وأخضعه لشخصيته وتصوره — إذا كان ابن حمديس كذلك فابن خفاجة يعتبر شاعر عصره ؛ يصور مشاهداته كما تصورتها نفسه ، وكما يعبر عنها المحدثون فى أسلوب سهل وبيان عذب ، وتستولى عليه روح المرح والمتاع بالحياة ، ثم لا نرى للماضى البدوى سوى أثر ضئيل فى شعره لا يعدو صلة الماضى بالحاضر ، والرمز للمعانى البدوية التى اتصلت باللغة العربية ، بل دخلت فى صميمها وأصبحت من مقوماتها فى جميع العصور ، كما يقوّم الأصلُ الفرع وإن بعد بينهما المدى [١] .

وهذا الاتجاه فى شعر ابن خفاجة يتفق مع حياته ونزعاته فيها تمام الاتفاق . فقد ولد أبو إسحق إبراهيم بن أبى الفتح ابن خفاجة الأندلسى بشقر من بلاد الأندلس سنة ٤٥٠ هـ ، وتوفى بها كذلك سنة ٥٣٣ هـ ، ولم يتصل بأحداث السياسة ، ولم تحرقه نار صروفها القاسية ، ولم يستذل نفسه وفنه للمدح ، وإنما تعالى رغم ما اتصل به من مغريات الحياة وأسباب العز فيها ، ورغم تهافت الحكام لذلك العصر على أهل الأدب .

وبهذا كان من الشعراء القلائل فى تاريخ العربية الذين أخلصوا الفن للفن ، ونأوا عن أن يتخذوه مرتزقاً .

وما حاجة شاعر كابن خفاجة يرى نفسه حيًّا فى جنة الأندلس إلى أن يتدلى عن معانى هذه الجنة التى تصورها على مثال جنة الخلد بل أعظم بهاء منها ، إلى نزعات الباديين من أهل هذه الحياة الدنيا ؟ !

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا فى دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار !

ولهذا يشتد شوقه دائماً إلى الأندلس إذا رحل عنها ، ويناجيها كلما هبت ريح الصبا ابتغاء

(١) الديوان : ط مصر سنة ١٢٨٦ : ص ١٢٨٦ : ص ٢٦ و ١١٨ و ١٢١ و ١٢٢ .

المتاع بطبيعتها التى تشابه فيها جمال الضوء وجمال الظلام ، ولم يتصل بها سوى معانى الحسن والسعادة (١) .

لقد كان صنوبرى الأندلس بحق ، كما لقبه المقّرى ؛ أقبل على مغانيها الطبيعية يتنزه فيها ، فتمتلئ نفسه بشراً وسروراً ، ويعبر عما فى نفسه تعبيراً رائعاً يفيض طرباً (٢) .

(ب) وقد اتصل الشعراء من قبل ابن خفاجة بالطبيعة ، لكن هذه الصلة عند شاعرنا قد توثقت وأكتملت . إنه يحل بين مغانيها ومباهجها ، فيشعر بمعانى البشر قد أحاطت به ، وأن الطبيعة قد لبست زينتها وبدت فى حلة العروس المجلوة :

وكمامة صدر الصباح قناعها ... عن صفحة تندى من الأزهار
فى أبطح رضعت ثغور أقاحه ... أخلاف كل غمامة مدرار
نشرت بحجر الأرض فيه يد الصبا ... درر الندى ودراهم النوّار
وقد ارتدى غصن النقا وتقلدت ... حلى الحباب سوالف الأنهار
فحللت حيث الماء صفحة ضاحك ... جذل وحيث الشط بدء عذار
والريح تنفض بكرة لمم الربى ... والطل ينضح أوجه الأشجار
متقسم الألحاظ بين محاسن ... من ردف رابية وخصر قرار
وأراكة سجع الهديل بفرعها ... والصبح يسفر عن جبين نهار
هزت له أعطافها ولربما ... خلعت عليه ملاءة النوّار

فيصور الطبيعة ذات جمال ودلال وزينة وبهاء وكرم وسماحة .

وصلته بالطبيعة صلة الصديق ، يحبها كما يحب الإنسان أعز الناس عليه ، ويطلب إليها أن تقوم وسيطاً بينه وبين إخوانه وخلانه البعيدين عنه فى حمل التحية إليهم . بل إن هذه الصلة قد تبلغ ضرباً من الإجلال والتقديس ؛ فيقسم بها كما يقسم الإنسان بمن يجله ويقدسه .

وما له لا يصنع ! أليست هى آيات من آيات الله تنطق بالعبرة ، وتحمل الموعظة ، ويطالع الناس فيها دروساً لا تعيها الكتب والأسفار ! إن الشاعر لهذا يطيل التأمل فيها ، ويجد فى هذا التأمل كنزاً من الحكمة والفطنة لا ينفد . إنه يناجى القمر ، ويصيخ إلى وحيه ، فتملأ

---

(١) راجع الأبيات التى أولها : إن للجنـــة فى الأندلس ... مجتلى حسن وريا نفس .
والأبيات التى أولها : ألا هل إلى أرض الجزيرة أوبة ... فأسكن أنفاساً وأهدأ مضجعا ؟ !

(٢) الديوان : ص ٣١ و ٣٢ و ٦٤ و ٧٠ .

مباهجه بصره ، ويطلب إليه الحديث لقوة ما اتصلت به نفسه . ويرى فى تطوره عبرة ، ويعجب للخلق الذين لا يرون فيه ما يرى ، ويلهون عنه بما لا غناء فيه :

لقد أصخت إلى نجواك من قمر ... وبت أدلج بين الوعى والنظر
لا أجتلى مُلَحاً حتى أعى مُلَحاً ... عدلا من الحكم بين السمع والبصر
وقد ملأت سواد العين من وضح ... فقرط السمع قرط الأنس من سمر
فلو جمعتَ إلى حسن محاورة ... حزت الجمالين من خُبْر ومن خبر
وإن صمتّ ففى مرآك لى عظة ... قد أفصحت لى عنها ألسن العبر
تمر من ناقص حوراً ومكتمل ... كوراً ومن مرتق طوراً ومنحدر
والناس من معرض يلهو وملتفت ... يرعى ومن ذاهل ينسى ومدّكر
يلهو بساحات أقوام تحدثنا ... وقد قضوا فمضوا آناً على الأثر
فإن بكيت ، وقد يبكى الخليل ، فعن ... شجو يفجر عين الماء فى الحجر

بل إنه حين تشتد به صروف الأيام ، وتدفعه إلى التفكير فيها ، يلجأ إلى الطبيعة . وهل نجا من الأيام ناج ، وهل استطاع إهمال ويلاتها شاعر ، ولو كان ابن خفاجة المرح الطروب ؟! فابن خفاجة فى قصيدته التى ينطق مطلعها بموضوعها :

بعيشك هل تدرى أهوج الجنائب ... تخب برحلى أم ظهور النجائب

قد سار ليلا فى وحشة ، لم يجد من يؤنسه سوى الجبل يركن إليه ، ويستمع إلى عظاته وعبره . وفى هذا المقام صور الجبل حكيما ذا عمامة ووقار وحكمة .

وبعد أن ترجم لأفكار الجبل وشعوره وحسه ، كما يترجم الأديب لفيلسوف بصير ، ختم الحديث بما ينم عن التعلق ومتانة الآصرة ، فقال :

فأسمعنى من وعظه كل عبرة ... يترجمها عنه لسان التجارب
فسلّى بما أبكى وسرّى بما شجى ... وكان على عهد السرى خير صاحب
وقلت ، وقد نُكبت عنه لطية : ... سلام ! فإنا من مقيم وذاهب

وهكذا يتصور الجبل صديقاً كما يتصور بنى الإنسان . وقد يبلغ هذا التصور به أن يطلب إلى الحمام مطارحتَهُ ، وإلى الغمام مساجلته ، كأنما هما شاعران يساجلان ويطارحان شاعراً ثالثاً :

ألا ساجل دموعى ياغمام ... وطارحنى بشجوك يا حمام

بل قد يتخيل نفسه موجوداً من موجودات الطبيعة ، يضم موجوداً آخر من موجوداتها . ومن هذا صنيعه حين صور نفسه حمامة يبسط عليها غراب جناحيه ، وتخيل بين جنبيه بحراً مالجاً ذا زخرة وعباب فقال :

كأنى وقد طار الصباح حمامة يمد جناحيه علىّ غراب
وقد جاش بحر بين جنبىّ مائج له زخرة فى وجنتى وعباب

وهذا كله ينطق بمدى اتصال الشاعر بالطبيعة ، واندماجه فيها ، وإحيائه لها .

(جـ) وبهذه الروح ، التى تحيى الطبيعة وتندمج فيها ، وصف الشاعر الموضوعات الطبيعية المختلفة .

ولروح المرح التى استولت عليه هتف بالخمر فى ميدان الطبيعة البهيج . وكان صوت الطبيعة مدوّياً لا يقاس إلى صوت الخمر ، لأن حب ابن خفاجة للطبيعة لا يعد له حب ، وطربه بها لا يقاس إليه طرب .

وقد هتف ابن خفاجة بالخمر فى جو الطبيعة المشرق الجميل ، وكان الخمر معنى واحداً من معانى الطرب المتعددة فى الطبيعة . وأين فتنة الخمر من فتنة الطبيعة الراقصة الطروب فى قوله يصف حديقة :

وصقيلة الأنوار تَلوِى عطفَها ريحٌ تلف فروعَها معطار
عاطى بها الصهباءَ أحوى أحور سحَّاب أذيال الندى سمَّار
والنور عقد والغصون سوالف والجزع زَند والخليج سوار
رقص القضيب بها وقد شرب الثرى وشدا الحمام وصفّق التيار

ثم قال :

فتطلّعت فى كل موقع لحظة من كل غصن صفحةٌ وعذار

فالدلال والشذى والزينة والرقص والطرب والغناء وسمات الحسن هى قوام الحب فى هذا الوصف وكلها من الطبيعة . وما الخمر إلا شىء ثانوى يزيد فى التعلق بتلك المعانى البديعة وفى تمام الشعور بها .

ونحو هذا جلوة الخمر فى ظل الأراكة المنصوبة ، وبجوار الجدول نُثرت الأزهار عليه ، فقد جعل نوار الغصون نِثار العروس ، كما جسم الأنوار فى النوار ، وجمع فيها وشْى البزاز ومسك العطار ، وجعل الأشجار تضم جيوبها على ما ينثره المطر من زينة مائية ، فتبدو الفتنة كلها فى

الطبيعة حين يقول :

وأراكة ضربت سماء فوقنا تندى وأفلاك الكؤوس تُدار
حفّت بدوحتها مجرة جدول نثرت عليه نجومها الأزهار
وكأنها وكأن جدول مائها حسناء شُد بخصرها زِنار
زف الزجاج بها عروس مدامة تُجلى ونوَّار الغصون نِثار
فى روضة جنح الدجى ظل بها وتجسمت نوراً بها الأنوار
غناء ينشر وشيه البزاز لى فيها ويفتق مسكه العطار
قام الغناء بها وقد نضح الندى وجه الثرى واستيقظ النوار
والماء ، من حلى الحياء مقلد زَرّت عليه جيوبَها الأشجار

وأين موقع أم الطرب من الروضة شقيقة المنى قد قام فيها الطير خطيباً ، والغصن خفيفاً ، والظل هافياً ، والماء منتعباً ، وتجلت فيها شجرة النارنج ، تلبس من الزينات أشدها أخذاً للبصر ، وتبدو باسمة حيناً ، وغاضبة حيناً آخر ، وجميلة دائماً ؟ !(١) .

وهتف ابن خفاجة بالخمر كذلك فى جو الغموض والغيم والثلج والمطر ، ولعل لهذا صلة مع الفتنة بهذا الجو الذى فتن به الشعراء من قبل ، بما تبعثه الخمر من معانى الحرارة والدفء . هتف بها لمرأى أثر الغمامة أو ذيلها فى تعبيره ، قدزينته الأنوار بوشى الربيع ، فى ظل سرحة غناء بين الخضرة والماء . وشربها حين عبس الماء وبدت الكواكب غرقى فى لجة السحب الدهماء تتنازعها الرياح(٢) . وشربها حين غشى الثلج وجه الثرى والربى والأغصان ، وانتشرت السحب فى الجو . وشربها فى الظلام بزورق ينساب فى الماء ، والطرب يهزه والشباب يملؤه (٣) . وشربها وعين الشمس سقيمة يجول فيها كحل الغيم وعبرة القطر ، ويعلوها الاصفرار (٤) . وشربها حين هبت ريح الفجر ، وهوى نجم الليل ، وغنى حمام الأيك ، واستمع إلى لحن فصيح يهتز له اهتزاز الريحانة السكرى بنشر الريح (٥) . وشربها بين النسيم العليل ، والظل الظليل ، والنور

(١) راجع الأبيات التى أولها :
ألا أفصح الطير حتى خطب وخف له الغصن حتى اضطرب .
(٢) الديوان : ص ١٧ .
(٣) الديوان : ص ٣١ – ٣٢ .
(٤) الديوان : ص ٥٨ و ١٠٦ .
(٥) الديوان : ٥٨ – ٥٩ .

المتفتح ، والماء الصقيل ، والسيل المنهمر ، والأغصان المتثنية ، والطيور المغردة ، والروض النشوان يهز معاطفه الصبا فيميلها ، ويفضضه الندى ، ويذهّبه الأصيل[١] .

فالطبيعة عند ابن خفاجة طروب تبعث فى النفس معانى الطرب ، وهو يشرب مجاراة لها فى طربها ونشوتها ورقصها :

عـاط أخلاّءك المداما واستسق للأيكـة الغماما
وراقص الغصن وهو رطب يقطر أوطـارح الحماما
وقد تهادى بها نسيم حيَّت سليمى بها سلاما
فتلك أفنـانها نشاوى تشرب أكوابها قيـاما

(د) وإذا كان من التجوز وصف الطبيعة بالصامتة فى مقام شعر الطبيعة لإحياء الشعراء لها ؛ فإن معنى الصمت أبعد ما يكون عنها عند ابن خفاجة . وقد مرت أمثلة لتصويرها على نحو إنسانى بديع ، تملؤه الحياة والحركة والنشاط .

وعناية ابن خفاجة بالطبيعة الصامتة واضحة فى كل ما سبق . ولهذه العناية أمثلة أخرى فى شعره . وكانت فتنته بالجنات والزهور واضحة بالغة ؛ ولهذا سماه السابقون « الجنان » . وتبدو هذه الفتنة على أشدها ، حين يذكر نزهة فى روض بروح تشف عن أحب الذكريات وأمتع المطربات :

سقيا ليوم قد أنخت بسرحة ربى تلاعبها الشمال فتلعب
سكرى يغنيها الحمام فتنثنى طرباً ويسقيها الغمام فتشرب
يلهو فترفع للشبيبة راية فيه ويطلع للبهارة كوكب
والروض وجه أزهر والظل فر ع أسود والماء ثغر أشنب
فى حيث أطربنا الحمام عشية فشدا يغنينا الحمام المطرب
واهتز عطف الغصن من طرب بنا وافتر عن ثغر الهلال المغرب
فكأنه والحسن مفتون به طوق على برد الغمامة مذهب

وهذا يصور اجتماع محاسن شتى فى الروض ؛ بين مطرب للسمع ، ومعجب للبصر ، وفاتن للنفس . وقد يتعلق حسه بجزئية من جزئيات البساتين والحدائق فيجليها فى فتنة كذلك . صور الخيرية فى صورة عاشق يبعث أنفاسه فى المساء معتصماً بأستار الظلام ، ويخفيها فى

---

(١) الديوان : ص ١٠٥ .

الصباح حذر الرقيب . ووصف شجرة منورة بأنها حسناء ذات جمال ودلال وعواطف ؛ يكشف الربيع قناعها ، ويحوك لها الغمام ثياب الحسن ، وينضح الندى نوارها ، ويغازلها ويعتب عليها الخليج قد تفتحت على صفحته ثغور الأقاحيّ [١] . ونحوهما أوصافه للشجرة على النهر ، والزهر بين النسيم والمطر ، والنبت فى الغروب ، والشقيق وجنى التين [٢] .

والماء وثيق الصلة بالروض ؛ ولهذا وصفه معه كما مر . وكأن مرأى النهر يثير فيه معانى الطرب ، ويملأ بصره بما فيه من جسر وزوارق ، وبما يتراءى على صفحته وفى جوه من ألوان [٣] ويتصل بهذا تصويره البحر ذا عاطفة من الخوف والحب ، تخفق أحشاؤه ، ويهيجه الصبا ، ويقوم الشاعر فيه فارساً على خيل الموج المتدافع . وفى كنف الروض صور السحب ، والنجوم ، والشمس ، والبرق ، وقد مرت أمثلة من ذلك ، كما يغنى الديوان بأمثلة أخرى [٤] .

ومن أوصافه الطريفة لمنظر النبت والنهر فى المغرب ، التى تبدو فيها طريقته فى تجميل الطبيعة وإحيائها ، قوله :

وقد غشيَ النبت بطحاءه ... كبدو العذار بخد أسيل
وقد ولت الشمس مُحْتَثّة ... إلى الغرب ترنو بطرف كحيل
كأن سناها على نهره ... بقايا نجيع بسيف صقيل

ونحو هذا فى الدلالة على المعانى السابقة تصويره السحابة صناعاً ماهرة ، قد أقبلت ، بعد أن طوت الليل وبيدها سوط البرق ، على ظهر الريح تتهادى فى وشاح مذهب ، وتجر ذيلاً أسود ، فنفحت النوار بدراهم بيضاء تمتد بها بنان الغصون .

(هـ) وتمثل الطبيعة الحية ما تمثله الطبيعة الصامتة من تعلق الشاعر بالجمال الطبيعى ، وتصويره لهذا التعلق فى أسلوب ذاتى وروح حديثة ؛ وإن كان بعض موضوعاتها مطروقاً من قبله ، بل قديماً قدم الشعر الجاهلى .

وأوضح مثل لهذا تصويره للفرس ؛ فالشاعر لا يصوره على مثال تصوير امرئ القيس ومَن بعده من القدماء والمحدثين ، وإنما يتناول الفرس فى البيئة الحديثة ، بيئة الزهر والروض وما يحف

---

(١) الديوان : ص ٣٩ .
(٢) الديوان : ص ٤٣ و٦١ و٧٦ و٩٥ و١٠٤ .
(٣) راجع الأبيات التى أولها : لقد احتلت بشاطئيه يزنى ... طرباً شباب راقنى وشراب
(٤) الديوان : ص ١٣٠ .

بها من مباهج الأرض ، وما يتراءى فوقها من مصابيح السماء . ويمثل هذا المنزع فى إيجاز قوله :

وأشقر تضرم منه الوغى بشعلة من شعل الباس
من جلنار ناضرٍ خدُّه وأذنه من ورق الآس
تطلع للغرة فى وجهه حبابة تضحك فى كأس

فقد صور الفرس على نحو طريف ، وإن كان المقام مقام حرب وقتال . صوره شعلة مضيئة ملتهبة ، وصور خده من الجلنار ، وأذنه من ورق الآس ، وأحاط هذا التصوير الموجز البليغ بمعنى الطرب حين جعل الغرة البيضاء فى وجهه الأحمر حبابة تضحك فى كأس من الخمر . ونحو هذا قوله فى وصف آخر :

طرب إذا غنى الحسام ممزِّق ثوب العجاجة جيئة وذهابا

وقوله فيه كذلك :

بسام ثغر الحلى تحسب أنه كأس أثار به المزاج حبابا

ويبدو منهجه فى تصوير الطبيعة الحية مفصلا فى القطعة التى أولها :

تخيرته من رهط أعوج سابحاً أغر كريم الوالدين نجيبا

ثم ذكر سرعته كأنما يفرق عدواً أو يجرى إلى حبيب ، وطيرانَه يخوض الخليج ويجوب الكثيب ، ووصف مقصد الفرس فقال :

يؤم بها أرضاً علىّ كريمة ومرتبعاً فيها إلىّ حبيبا
ونهرا كما ابيضّ المقبل سلسلا وجزعاً كما اخضرّ العذار خضيبا
ورب نسيم مرّ بى وهو عاطر رقيق الحواشى لا يحس دبيبا
وجدت به من ذلك الماء بلة ومن نور هاتيك الأباطح طيبا
فصافحت ريعان النسيم تشوقا إليها ولازمت القضيب رطيبا
وقد قلد النوار جيداً لربوة هناك ونحراً للفضاء رحيبا
وأفصحت الورقاء فى كل تلعة نشيداً وقد رق النسيم نسيبا

وكما صور الفرس فى هذا الجوبين الخليج والنهر والنسيم والورقاء والزهر ، فقد صوره كذلك فى جو الروض والبارق والمطر ، كما صوره فى جو السماء بنجومها وقمرها .

وهذا ديدن الشاعر فى أوصافه الحية . يتناول الموضوع القديم فى الشعر العربى ، ثم لا يتبع

طريق من سبقوه ، أولا يلزمه ؛ وإنما يعنى بتجلية الطبيعة ، وتصوير أشكالها وألوانها ، قبل أى شىء آخر .

فحين يصف لقاء الذئب ليلاً لا يعنى بوصف فتك الذئب وبأس الشاعر ، وما دار بينهما من صراع ، على نحو ما صنع غيره ؛ وإنما يصف جو المفازة وقتامته ، وما يتراءى فى سمائها السوداء من الشعرى التى تتداول ضوءها الغيطان والربى كأنما هى تيار متموج :

تتلهف الشعرى بها وكأنها فى كف زنجى الدجى دينار
ترمى بها الغيطان فيها والربى دولا كما يتموج التيار

وبعد أن يذكر طواف الذئب الختال به فى هذا الجو المظلم ، يصور الجو الطبيعى المحيط به . ثم لا ينحط بنزعته الطبيعية التى أحبه الناس من أجلها بذكر الصراع بينه وبين الذئب ، وكيف صده أو صرعه ، وإنما يجعل خاتمة الوصف قوله :

قد شاب من طرف المجرة مفرق فيها ومن خط الهلال عذار

وكان هذا طبيعياً من شاعر يقصد إلى التعبير عن الجمال الطبيعى ، لا إلى الفخر بالبطولة والبأس .

وهو كذلك حين يصف الكلب مع الطير والأرنب ؛ فإنه لا يعنى بتصوير معركة الصيد ، وإنما يعنى بتصوير هذه الموضوعات الطبيعية وجوها . ومنه قوله فى الكلب :

وطوراً يرتقى حدب الروابى وآونة تسيل به البطاح
جرى شدا وللصبح التماع بحيث جرى وللبرق التماح
فخلخله وسوره وميض جرى معه وطوّقه صباح

ومن كل ذلك يتبين فى وضوح أن ابن خفاجة يمثل الشاعر الصادر عن حسه وبيئته فى غير جفوة بين الحس والبيئة ، وأنه يصور نهضة شعر الطبيعة فى وطنه خير تصوير ، يمثل الأندلس بطبيعتها الجميلة ، ومرح أهلها ، وحبهم للحياة ، وإقبالهم على متاعها . ويعيش بعقل عصره وتفكيره ، ويهذب أسلوبه الشعرى وإن بعدت لغته فى القدم ، ويقرأ الباحث فى شعره معانى الحب والجمال ، ثم لا يحس بثقل الزينة اللفظية البديعية مع احتفال الشاعر لها ، إلا كما يحس بثوب الحسناء الشفاف الجميل ، يزيد جمالها فتنة ، ولا يُغَشِّيه ؛ فهى أصل الجمال ، وهو آية الاتساق والانسجام . وهذه سمة الشعراء المبدعين الذاتيين ؛ لا تطربنا ألفاظهم إلا بقدر ما نطرب لشعورهم وأفكارهم ، وهو قدر كبير .

الفصل الرابع

فى مصر

١ – بين التاريخ والأدب

فى نحو السنة العشرين للهجرة ، فتح العرب مصر فتحاً يحوطه كثير من الإبهام فى تاريخه وبواعثه وتفاصيله ، وإن كان نتاجاً طبيعيًّا للتوسع العربى فى الفتح ، رغبةً فى تأمين بلاد العرب وإمبراطوريتهم من هجمات الروم الذين هزموا فى الشام ، وفى الحصول على أرض خصبة غنية بعد ما ذاق العرب من الجوع فى فترات عديدة وما تحمل ابن الخطاب من العناء فى توفير أسباب الحياة لرعيته . وكان طريق الفتح ممهداً للعرب بحكم حاضرهم المظفر ، وقوتهم الفتية ، وضيق المصريين بالروم الذين أذاقوهم على يد قيرس Cyrus داعية الملكانية سوء العذاب .

وحين تم للعرب فتح مصر عاملوا أهلها خير معاملة : خففوا عن كاهلهم أعباء الضرائب ، وفتحوا لهم باب الوظائف العامة ، وكفلوا الحرية الدينية ؛ فتمتع المصريون برخاء وحرية لم يألفوهما فى العهد الرومانى الطويل .

وظلت اللغة العربية قروناً غريبة فى مصر ، وظل أهل البلاد يتكلمون القبطية واليونانية . وكان شعراء الشام والمشرق والأندلس فى ذلك الوقت الطويل يرددون نغمات البيئة العربية التى مرَّ ذكرها . وكان منهم من يرحلون إلى وادى النيل طلباً لعطاء حكامه وأصحاب السلطان فيه ، أو فى أثناء رحلتهم للحج أو غيره ، فيضربون فى هذه البيئة المصرية على أوتار الجزيرة العربية ، ولا يتصل المصريون بكل ذلك اتصالاً وثيقاً . لكن عوامل الحكم ، والحضارة العربية ، والحرية التى هيأها الفاتحون لأهل البلاد ، وانتشار الإسلام بين المصريين – مكنت للغة العربية أسباب السيادة التى كملت فى القرن الرابع الهجرى .

وفى هذا القرن تشارك مصر فى نهضة شعر الطبيعة متأثرة ببيئتها ، وبظروف الحياة المحيطة بها ، وبنهضة شعر الطبيعة فى البيئات العربية الأخرى . فلنستعرض الألوان الطبيعية المصرية من ذلك الوقت إلى القرن السابع الهجرى ، ولنعلل لحالها قوة وضعفاً ، ولندل على مدى

الخصوصيات لشعر الطبيعة فى الوطن المصرى ، ومبلغ تعلق الشعراء بوادى النيل وبطبيعته الخصبة المعطاء .

٢ – الطبيعة والخمر

وإذا كان حديث الخمر فى جو الطبيعة من الموضوعات السائدة فى الشعر العربى ، فقد تعلق شعراء مصر به كذلك ، ورددوه كما ردده سابقوهم .

فكمال الدين بن النبيه ينادى غلامه أن يوافيه بالصهباء ، فقد مزق الديك الظلام بصُداحه ، وبدت تباشير الصباح فى خفائها الشيق ؛ وما الخمر فى كأسها إلا شمس تشير إلى شمس الصباح المقبلة ، وما فقاقيعها إلا دراريّ تشير إلى النجوم الذاهبة . والصبوح الباكر أهنأ الشراب ، بما توفر له من ترنيم الطائر فوق الأيك ، وجرى اللامعات فى مجرة الليل ، كالروض تطفو أزاهره على النهر ؛ ومن ظهور كوكب الصبح ، كالنجّاب يحمل فى يده مخلّقاً مليئاً بالبشائر الكبرى [١] .

ونحوه نداء البهاء زهير ، مستعيناً بالصهباء فى الإجهاز على بقية الليل ، ومصوراً جو الصباح يحفه النسيم ، وتزول فيه الرقوم من حلة الليل ، ويبتلع الفجرُ النجوم فى جوفه [٢] .

وقد أبدع أبو الفتح بن قلاقس فى تصوير الطبيعة الصباحية ، والمزاوجة بين الطرب بالطبيعة والطرب بالخمر فقال :

شق الصباح غلالة الظلماء ... وانحل عقد كواكب الجوزاء
وتكللت تيجان أزهار الربى ... بغرائب من لؤلؤ الأنداء
وجرى النسيم فجرّ فضلَ ردائه ... متمرساً بمساقط الأنواء
وعلا الحمام على منابر أيكه ... يبدى فصاحة ألسن الخطباء
ودعا وقد رق الهواء منمق السربال : طابت زهرة الصهباء
لو لم يكن ملك الطيور لما انثنى ... بالتاج يمشى مشية الخيلاء
فاشرب معتقة الطلا صرفاً على ... رقص الغصون ونغمة الورقاء

---

(١) حلبة الكميت ، لشمس الدين محمد بن الحسن النواجى ؛ ط بولاق سنة ١٢٧٦ : ص١٠٢ – ١١٣ .
(٢) راجع أبياته التى أولها : رق فى الجو النسيم ... فتفضل باندمى !

وروح أبى نواس تبدو فى هذه الأوصاف وبخاصة عند ابن قلاقس ، وإن استجاب لوحى البيئة والميراث الرومانى لبلده الإسكندرية ؛ فتحدث فى أسلوب أشد ظرفاً وأخف روحاً وذكر خمر قيصر بدل خمر كسرى[١] ، كما تبدو فى أوصاف أخرى للبهاء زهير ، وابن وكيع التنيسى ، وتميم بن المعز الفاطمى[٢] .

وكثيرون غيرهم قد تغنوا بالطبيعة الغامضة فى جو الخمر ، يضفى عليها الجلالَ ومعانىَ الغموض الليلُ والمطر والغمام والرعد والبرق . فأبو القاسم بن طباطبا يحتج للخمر بإثارة الغيم لمعانى الحب والطرب فى النفس[٣] . والبهاء زهير قد تفنن حين وصف الشراب فى يوم مطير بين الطرب والغناء والريحان والأزهار[٤] . وابن الساعاتى قد دعا بالخمر تضحك بين عبوس الغمام ، ووجه الروض طلق تلثمه ثغور الأقاحىّ ، والندى يجرى فى عيون النرجس ، والبدر فى أول عمره كغرة الأدهم أو الدرهم فى وجه الزنجية[٥] . ودعا إليها كذلك بين الرعد والمطر والبرق والغمام[٦] .

وقد يجمع بعضهم بين وصف الليل ووصف الصباح فى جو الخمر ، كما صنع البهاء زهير فى أرجوزته :

ولـيـلـة كـأنـها يـوم أغـر ظلامها أشرق من ضوء القمر

ونحن فى الجملة نطالع مثل ما طالعناه فى شعر الشام والمشرق ، لكننا قد نحس فى هذه الأوصاف الروح المصرية العذبة ، كما تقابلنا معاهد مصر ومحلاتها فى حديث الخمر والطبيعة . فابن وكيع التنيسى ، وهو من أقدم شعراء مصر ، يهتف بالخمر فى اضطراب الخليج وزينة الأرض والسماء :

قم فاسقنى والخليج مضطرب والريح تثنى ذوائب القضب
كـأنـها والريـاح تعطفهـا صف قنا سندسية العذب
والجو فى حلة ممسكة قد طرزتها البروق بالذهب[٧]

---

(١) حلبة الكميت : ص ٣٢١ .
(٢) ديوان البهاء ، ط مصر : ص ٣٦ و١٩٠ و٢٣٠ وتيار الأزهار : ص ٤٦ و٤٨ ، وحلبة الكميت : ص ٣٠٦ .
(٣) اليتيمة : ج ١ ص ٢٦٩ .
(٤) الديوان ؛ ط مصر : ص ٩٦ .
(٥) ديوان ابن الساعاتى ؛ ط الجامعة الأمريكية ببيروت : ج ٢ ص ٥٧ .
(٦) الديوان : ج ٢ ص ١٦٨ . (٧) اليتيمة : ج ١ ص ٣٣٨ .

ومحمد بن عاصم الموفقى فى مقطوعته :

اشرب على الجيزة والمقس من قهوة صفراء كالورس

يتحدث عن الشراب فى الجيزة والمقس ، ويحتج بالاحتجاج المصرى الشائع ؛ وهو اقتناص المتاع قبل حلول الأجل المتوقع فى كل آن[1] .

والبهاء فى قصيدته :

عـلا حـس النواعير وأصـوات الشحـــــارير

يتحدث فى نظم عذب عن النيل والشراب .

وابن الساعاتى يتحدث عن الشراب فى ليالى المحـــلة الكبرى ؛ فيذكر أوجه الروض الحسان ، وأعين الماء النجل ، وأسهم الغمامة ، ونصولها المجردة فى الجداول ، وابتسام الأقحوان ، وحياء الورد .

ومن هذا كله يتبين أن حديث الخمر والطبيعة فى هذه البلاد قد جمع بين صوت الماضى العربى المشترك ، وصدى البيئة المصرية الخاصة .

٣ – الطبيعة والحب

وردد المصريون حديث الطبيعة والحب ، وأضفوا عليه من روحهم ومزاجهم ، ووجدوا كذلك للطبيعة زينة فى ظلال الهوى فوق زينتها ، وحملوها الأشواق للحبيب القاصى ، ووجدوا فى مظاهرها إثارة لتباريح الوجد ، ومحاكاة لشمائل الحبيب .

وفى سبيل الهوى والفتنة بالحبيب تصوروا محاسن الطبيعة فيه ، وربطوا بين فتنته وفتنتها ، وبالغت طائفة فى هذا المعنى حتى اشتقوا محاسن الطبيعة من محاسن الحبيب ، ولم يجدوا للأولى جمالاً بغير الثانية . فتميم بن المعز الفاطمى يعقد بين الحبيبة والبدر مقابلة [2] ، والقاضى الفاضل يناشد لمعة البرق وهبة الريح حمل جسمه إلى الحبيب ، ثم يعود فيطلب إليهما أن تبلغاه سلاماً عبقاً متقداً ، وأن تخبراه بأنه ذكْر الشاعر وتسبيحه [3] . وابن سناء الملك يرى المتاع الذى

---

(١) اليتيمة : ص ٣٨٢ .

(٢) راجع الأبيات التى أولها : شبهتها بالبدر فاستضحكت وقابلت قولى بالنكر

(٣) حلبة الكيت : ص ٢٨٠ .

لايدانيه متاع حين يجود بدره بالوصل وبدر السماء مشرق ، ويملأ البصر من محاسن قمره الذى يبسم عن الدر ، ثم يهيم بمباهج الطبيعة فى هذا الجو الطروب ، ويشتد به الهيام ؛ فلا يجد أبلغ من التفدية بالنفس والقسم تعبيراً فى هذا المقام (١) .

والبهاء زهير يتفنن فى هذا الباب على طريقته ما شاء له التفنن ؛ فالنجم خبير بحاله ، والريح فى جانب الغور يردد أنته ، والبرق نار صبابته ، والسيل ماء دموعه التى لولاها ما أمرع الغور :

سلوا النجم يخبركم بحالى فى الدجى ولا تسألوا عما تجن ضلوعى
قفوا تسمعوا من جانب الغور أنّتى فقد أسمعت من كان غير سميع
وإن لاح برق فهو نار صبابتى وإن راح سيل فهو ماء دموعى
وذا العام قالوا أمرع الغور كله وما كان لولا دمعتى بمريع

ورسائله إلى الحبيب يودعها طىّ النسيم . وقد يشك فى النسيم ، لشدة ما أحياه فى نفسه ، فيكتمه الحب ، ويتهمه بزعم السلوان للحبيب ، أو بإذاعة سره المصون (٢) . ويربط بين الحبيب والطبيعة فى مظاهرها المتنوعة ربطاً وثيقاً ؛ فالغصن قوامه ، والبدر وجهه أو أخوه ، وعطر الأراك من ريقه ، والبرق ابتسامه (٣) ؛ ويرعى النجوم ، لأن حبيبته تنظم منها عقدها ؛ ويغار على الغصن الرطيب الشبيه بها من الصبا (٤) . وقد يبدو هنا تغليب معانى الحب على معانى الطبيعة . وقد يظهر هذا التغليب على أتمه فى مثل طلبه إلى القمر الانصراف لحضور قمره الحبيب (٥) ، وتفضيل بدره على بدر السماء فى لهجة مصرية عذبة :

بـــــدرى أرق محاسنا والفرق مثل الصبح ظاهر

وقد يشبهه بالقمر والغصن والظبى وغيرها ، ثم يلم به داعى المبالغة فيزعم أن الحبيب قد أزرى بالبدر وبالغصن وبالظبى جميعاً ، فيقول فى عبارة مصرية :

طلع العذار عليه حارس قمر تضىء به الحنادس
كـالرمح مهزوز القوام وكالقضيب اللدن مائس
ويروح يقظـــان الجفـو ن تخاله كالظبى ناعس

(١) حلبة الكميت : ص ١٩١ .
(٢) ديوان البهاء زهير : ص ٦٩ ، ١١٨ .
(٣) المصدر السابق : ص ١٨٦ .
(٤) نفس المصدر : ص ٦٧ .
(٥) ديوان البهاء زهير : ص ٩٤ .

البـــدر أمسى أكلفـــا من حسنه والغصن ناكس
والظبى فر من الحيا ء إلى المهامه والبسابس(١)

ولا ريب أن البهاء كان سائراً فى طريق ابن الساعاتى الذى عبده من قبلُ ابنُ زيدون وغيره . بل إن البهاء لم يبلغ مبلغ ابن الساعاتى من الاسترسال فى معانى الطبيعة والحب ، وتصوير الكون فى رونق الغرام ؛ فكثيراً ما أوى ابن الساعاتى إلى الرياض يستمتع بالحبيب ، ويصورها على غراره ، ويرسمها على شاكلته(٢) .

ومن أبرع المعانى فى الطبيعة والحب قوله فى يوم وصْلٍ بأسيوط مصوّراً الكثير من مباهج الطبيعة المتنوعة :

لله يوم فى سيوط وليلة صرف الزمان بأختها لا يغلط
بتنا وعمر الليل فى غلوائه وله بنور البدر فرع أشمط
والطل فى سلك الغصون كلؤلؤ نظم يصافحه النسيم فيسقط
والطير تقرأ والغدير صحيفة والريح تكتب والغمامة تنقط(٣)

وقد يتمثل جمال الطبيعة فى الحبيب ؛ فيناديه بغصن البان ، والقمر ، ومقلة الريم ، وقد الغصن ، وسالفة الغزال ، وثغر الأقاحى ، وطلعة القمر(٤) . وقد تبدو روعة معانى الحب فى حديث الطبيعة ، فى غير نيل من جمال الطبيعة إلا بقدر التجميل للحبيب ، ثم لا ينسى أن يصور الطبيعة ذات غرام وهوى على مثاله مجملاً لها(٥) .

وهكذا كان حظ ابن الساعاتى فى هذا الباب عظيماً ، ولم يبلغ من حاكوه مبلغه فى صدق الشعور بجمال الطبيعة ، والبراعة فى تصوير هذا الشعور . وإن فنه ليذكر بفن الشعراء الممتازين فى دور الانتقال . ولعل لصلته الوثيقة بالشام حظًّا فى بلوغ هذه المنزلة .

وتشبه روح ابن الفارض روح ابن الساعاتى مع اختلاف فى نزعة عمر إلى البادية والحب البدوى ، والتعلق بالمعانى العربية مصورة فى مشاهد الجزيرة ، ومعاهدها ، وأسلوب الحياة فيها . فريح الصبا تبعث فى نفس عمر الشعور بالحب ، وتطربه وتعطر الجو بشذى الحبيب ؛

(١) ديوان البهاء زهير : ص ١٠٣ - ١٠٤ .
(٢) ديوان ابن الساعاتى ؛ ط بيروت : ص ٢٢ و ٥٣ و ٦٦ و ٨٥ .
(٣) ديوان ابن الساعاتى : ص ١٧٢ .
(٤) الديوان : ج ٢ ص ١٨٧ .
(٥) الديوان : ج ٢ ص ٥ .

ومن أجل الحب استهواه البرق ، وشجاه نوح الحمام ، وأحيا نفسه أرج النسيم يحيي الميت الواله ، ويعنبر الجو ، ويروى أحاديث الأحبة رواية وثيقة[١] .

أما روح جمال الدين بن مطروح فأقرب فى هذا الباب شبهاً بروح البهاء . لكن البهاء قد تهيأ له من الإحساس العام بجمال الطبيعة ما لم يتهيأ لابن مطروح . فالطبيعة لا تستهوى ابن مطروح إلا إذا كانت مصورة فى الحبيب ؛ لا يستهويه الدر إلا مصوّراً فى أسنان المعشوق ، والورد إلا فى الخدود ، والغصون إلا فى قامات الملاح .

٤ – الروضيات

واستهوت الطبيعة الشعراء المصريين ممثلة فى الرياض كما استهوت غيرهم ؛ فتغنوا بجمالها لذاته غير موصول بنشوة الخمر ولا بمتاع الحب ، وأقبلوا على أشكال الزهر والزرع يمتعون النفس بمرآها ، ويصورون إحساسهم ، كما أقبلوا على معانيها يمثلونها ويعبرون عنها . وكان طبيعيًّا أن يفتنهم الربيع كذلك ، فتغنوا بمحاسنه ، وقابلوا بينه وبين الفصول الأخرى .

وابن وكيع التنيسى ، من شعراء الطليعة ، يعتبر أوفى مثل للعناية بالرياض والزرع . ولم يكن هذا بمستغرب من شاعر يحيا بتنيس ؛ تلك الجزيرة المزدهرة جوار البحر الأبيض المتوسط بين دمياط والفرما ، قد عرف أهلها منذ القدم بالزخارف يرسمونها ، ويزينون بها فاخر الثياب التى يصنعونها .

لقد فتن ابن وكيع بأشكال الزهر ، كما فتن ابن المعتز من قبل ، فأقبل يصور أشكالها وألوانها على نحو براق يفصح عن التعلق البصرى[٢] .

وهذه الطريقة ، من العناية بالشكل واللون فى تصوير النبات والزهر شائعة فى شعره . وتتمثل فى أوصافه للآس والخيرى والآذريون والباقلاء والخشخاش والجلنار والرازيانج والبلح والطلع والزيتون والبصل والكتان والمشمش ونحوها[٣] .

---

(١) ديوان ابن الفارض ؛ ط مصر سنة ١٢٩٥ هـ : ص ٣٨ و٤٠ و٧٦ .

(٢) نهاية الأرب : ج ١١ ص ٢٢ و٢٦ و٢٧١ و ٢٧٨ .

(٣) حلبة الكيت : ص ٧٦ نهاية الأرب: ج ١١ ص ٢٢ و٢٥ و٢٦ و٥٩ و٨٩ و١٠٢ و١٢٦ و١٣٢ و٢٤٠ و٢٧٠ و٢٧١ و٢٧٨ . والبتيمة : ج ١ ص ٣٤٠ و٣٤١ .

على أن هذه الزهور تفتنه كذلك بمعانيها الجميلة وسط المجموع الطبيعى الفاتن . وتمثل هذا مقطوعته :

يوم أتاك بوجهه المتهلل ... ناهيك من يوم أغر محجل
خلع الغمام على اخضرار سمائه ... خلعا فبين ممسّك ومُصَنْدل
وعلا على الأشجار قطرُ سمائه ... فبدت لعين الناظر المتأمل
تحكى قباب زبرجد قد كللت ... بمنظم من لؤلؤ ومفصل
وأتاك زهر الباقلاء كأنه ... يرنو إليك بطرف أغيد أكحل
والورد يخجل كل نور طالع ... فتراه منتقباً بحمرة مخجل
وحكى بياض الطلع فى كافوره ... وجه الخريدة فى الخمار الصندل
وتغردت أطياره فحكت لنا ... نغمات معبد فى الثقيل الأول
من كل صافية الصفير إذا دعت ... أغنتك عن صنج هناك وجلجل
وكأنما الدنيا عروس أقبلت ... فى كل أنواع الملابس تنجلى[1]

فالنظر الشعرى الفاتن لزهر الباقلاء ، والإخجال الجميل للورد ، وحسن بياض الطلع فى الكافور كحسن وجه الغانية فى الخمار — هذه كلها ليست إلا معانى جزئية فى المجموع الطبيعى الفاتن بنواحيه العديدة ، أو « بأنواع ملابسه » ، على تعبير الشاعر ؛ من نحو منظر الغمام فى السماء ، والقطر على الشجر ، وألوان الزهر ، وتغريد الطير . وهكذا صار العالم كالعروس فى زينة الجلوة .

وتعلق الشاعر بالربيع ، وأطنب فى إيراد محاسنه وبدائعه . ولا عجب فهذه سنة الشعراء من قبل ، والربيع موسم الأعياد الطبيعية . ففى مقطوعته :

ألست ترى وشى الربيع المنمنما ... وما رصّع الربعى فيه ونظّما

تفتنه ألوان الزهر تتزين بها الأرض حتى تشاكل السماء ، فيتشابه عليه الأمر ، ثم يفسر هذا التشابه بقوله فى الأرض :

فخضرتها كالجو فى حسن لونه ... وأنوارها تحكى لعينيك أنجما

ويعدد ألوان الزينة الأرضية ؛ من نرجس تداخله العجب ، فتبسم وتطاول على الورد ؛ وورد مغيظ من هذا التطاول ، قد بدت آثار الغيظ على خده فى لون الدم ؛ وشقيق ينازع الورد

(١) حلبة الكميت : ص ٣٢٧ .

فضله ، ولكن الورد يبزه فيظل الشقيق يلطم خده ، ويظهر أثر اللطم فى احمرار لونه ؛ وسوسن رأى الألوان قسمة بين الزهور ، فارتدى من اليواقيت الزرقاء حلة ، وتميز بلباسه ، ومنثور تخالفت ألوانه وأشكاله ، فتمت بها هيئة الربيع . وهكذا يتزين الربيع عنده بهذه الجواهر التى لو ظفرت بطول البقاء لرأينا الملوك بها مختمين ! .

أسفر عن بهجته الدهر الأغر وابتسم الروض لنا عن الزهر[1]

ينظر إلى الربيع نظرة أوسع ؛ فلا تفتنه فيه ألوان الزهر وحدها ، وإنما يستهويه من ناحيتين : ناحية الوشى الذى طرزه الله لمتاع البصر لا لا بتذال اللبس ، قد عشقته السماء فبكت بجفون المطر حتى بدت الأرض فى حلة عروس عليها نثار من در ، وتزينت بالورد والنرجس والنارنج والمنثور ونور الباقلاء ؛ وناحية الأطيار تغرد كأنها القيان تغنى فوق بساط مزركش .

وفى سبيل الفتنة بالربيع يؤلف مزدوجته المطولة :

يا سائلى عن أطيب الدهور وقعت فى ذاك على الخبير[2]

فينال من فصل الصيف ، ويلعنه أشد لعن ، كما ينال من فصل الخريف ، وإن على نحو أخف ، ثم يعود فينال من الشتاء على نحو ما نال من الصيف ويودعه فى رجاء لعدم الأوبة ، حتى إذا انتهى إلى الربيع نظم فيه ألوان المدح ، وعدد محاسنه التى يتعلق بها حسه ، وتطمئن إليها نفسه .

فالربيع فصل الاعتدال فى البرد والحر ، والعدل فى الأوزان ، والإنصاف فى الجملة والتفصيل ؛ « نهاره من أحسن النهار » ، و « ليلة مستلطف النسيم » :

لبدره فضل على البدور فى حسن إشراق وفرط نور
كجامة البلور فى صفائها أو غرة الحسناء فى نقائها
كأنها إذا دنت من نحره جوزاء قبل طلوع فجره
رومية حلّتها زرقـــاء فى الجيد منها درة بيضاء

هذا وهو يجمع أموراً كثيرة « إسراف مطريها من التقصير » ؛ فمن طير يترنم فى حذق ، وإن لم يتعلم اللحن ، لا يفهم السامع غناءه ، لكنه يتشهاه تشهياً ، ويطرب لرنين الدبس كما يطرب لحنين القمرى ، وكما تستهويه زينة الطير ولباسه ؛ ومن رياض يزينها النرجس الغض ؛ ومن

(١) نهاية الأرب : ج ١١ ص ٢٧٠ ، واليتيمة : ج ١ ص ٣٢٩.
(٢) اليتيمة : ج ١ ص ٣٢٣– ٣٢٨ .

أترج يختال فى غلائله ؛ ومن خشخاش كالكرات البيضاء الملفوفة فى رقعة خضراء ؛ ومن بهار كمداهن العسجد .

وليست الفتنة بالرياض مقصورة على ابن وكيع ، وإنما تشيع بين الشعراء المصريين على أقدار متفاوتة ، ولا يسلم منها إلا من تعلق بالجزيرة يستمد منها وحيه الشعرى ، ويطرب نفسه التى شدت إلى منزل الوحى . فابن الساعاتى يفتنه شكل الزرع فى أوصافه للطلع والموز وغيرهما(١) . وقد تستهويه الروضة بجوها العنبرى ، ودوحها الجوهرى ، وأرضها السندسية ، وزهورها المتعاطفة تعاطف الأحبة ؛ فيهيم بها حبًّا ، ويتعلق بها بصره ، ويهتف كما هتف كثيرون من قبل :

ولقد نزلت بروضة حزنية ... رتعت نواظرنا بها والأنفس
فظللت أعجب حيث يحلف صاحبى ... والمسك من نفحاتها يتنفس
ما الجو إلا عنبر والدوح إلا ... جوهر والأرض إلا سندس
سفرت شقائقها فهم الأقحوا ... ن بلثمها فرنا إليها النرجس
فكأن ذا ثغر وذا خد بحا ... له وذا أبداً عيون تحرس

وفتنه الربيع أيضاً ؛ فتغنى بصوت أبى تمام وإن لم يبلغ شأوه ، واتخذ منه عبرة وموعظة ، وأنعم النظر فى معانيه ، وجعل الغنى به قسمة بين الناس جميعاً ، وحظاً لا يجمل معه شكوى الفقر أو الحرمان . وحق له أن يقول فما الفقر إلا فقر النفس والشعور . وتبدو طريقة أبى تمام فى العناية بالجناس والبديع على أتمها فى قصيدته التى تصف الروض أثناءَ المطر :

عرضت سماء الدجن زهر جنودها ... وسرت فراع الجدب خفق بنودها (٢)

وبهاء الدين زهير تستهويه الرياض كذلك ، حتى يجد فيها مع الكتب الأنس كل الأنس(٣) ، فيقول فى روح مصرية لطيفة :

أنا فى البستان وحدى ... فى رياض سندسيه
ليس لى فيه أنيس ... غير كتب أدبيه

(١) الديوان : ج ١ ص ٢٣ ، ١٢٦ ، ج ٢ ص ١٦٤ .
(٢) الديوان : ج ٢ ص ٢٠٦ ، ٢٣٩ .
(٣) ديوان البهاء : ص ٥١ .

ويتمثل هذا الاستهواء فى نحو قوله :

أو ماترى ثغر الأزاهر باسماً فرحاً وعريان الغصون قد ارتدى

وقف السحاب على الربا متحيراً ومشى النسيم على الرياض مقيداً

فالرياض بديعة بجمالها الذاتى البسام ، ويثوبها القشيب . ولهذا يتحير السحاب إذ يقف عليها ، ويمشى النسيم الوانى ليتهيأ له من المتاع بها أوفر حظ .

وقد أمتع الشاعر النفس بالرياض أيام الهوى والشباب ، حتى إذا ما انقضت هذه الأيام أخذ يذكرها فى حسرة ، ويبكى جمال الرياض الذى كان يطالعه فى الصباح الباكر ، فيطالع فيه طمأنينة النفس ، وسكون القلب ومتاع البصر والأنف ، وهوى القلب ، ثم يطالعه فى الآصال فيزداد به تعلقاً وهياماً (١) .

على أن صلة الروضيات فى الشعر المصرى بالبيئة سيظهر مداها على نحو أتم فى حديث النيل .

٥ – السماء

وقد رأينا فى حديث الحب والخمر تعلقاً بالسماء ، ونجومها اللامعة ، وبدرها المتألق ، وشمسها المضيئة ، كما رأينا فى حديث الروضيات وصفاً للسحب والبرق والمطر .

لكن السماء قد استهوتهم لذاتها كما استهوت من قبلهم ، وكما استهوتهم جميعاً الرياض ، فتعلقت بها أبصارهم وأفئدتهم وتغنوا بجمالها .

وإذا كان ابن وكيع التنيسى قد عنى بالرياض عناية ، فإنه لم يحرم العناية بالسماء ، ووصف أشكال النجوم على طريقة ابن المعتز . ومن ذلك قوله (٢) :

والجو صاف قد حكى بأنجم فيه غرر

جام زجاج أزرق قد نثرت فيه درر

على أننا قد نحس فى هذه الأوصاف معانى الرياض ، تحلق فى جوها نفسه ، ويسرح

---

(١) راجع مقطوعته التى أولها : لله بستانى وما قضيت فيه من المآرب

(٢) نثار الأزهار لابن منظور : ص ١٤٠ .

خياله . ومثل هذا قوله [١] :

أما ترى أنجم الدياجى تزهو فى ثوبها النقى
تحكى لنا لؤلؤاً رطباً على بساط بنفسجى

وإذا كانت البيئة المصرية قد ظفرت بابن وكيع الذى توفر على الرياض يصفها ويستقصى محاسنها ، وألف فى فصول السنة مزدوجة ، ونظر فى الطبيعة الخصبة نظرة شعرية عامة ، فإن هذه البيئة نفسها قد ظفرت بشاعر آخر توفر على وصف السماء والنجوم توفراً ، وعنى بها عناية ؛ ذلك هو محمد بن أبى القاسم أحمد بن طباطبا .

فمحمد بن طباطبا قد فتنته السماء والنجوم فتنة طريفة . كان الشعراء يتوجعون لطول الليل ورعى النجوم فى الجاهلية ، حتى إذا أتى عصر التجديد بهرتهم أشكال النجوم والكواكب والقمر والشمس ، فتعلق بها بصرهم ، وعبروا عن هذا التعلق . أما محمد بن طبا طبا فقد أنِس بالليل والكواكب ، وبكى على زوالها ، وتوجع لفقدها ، فانفرد بهذا الأمر ، كما قال ابن منظور [٢] . وتمثل هذا التعلق الفريد قصيدته :

وتنوفه مد الضمير قطعتها والليل فوق أكامها يتربع [٣]

فقد وصف الكواكب فى السماء ، وما أوقعها فيه اقتراب الصبح من الحيرة والجزع بنحو قوله :

وكواكب الجوزاء تبسط باعها لتعانق الظلماء وهى تودع
وكأنما الشعرى العبور وراءها ثكلى لها دمع غزير يهمع
وبنات نعش قد برزن حواسرا قُدّامها أخواتهن الأربع

وعبر عن فتنة الليل بقوله : إنه لو كان ذا سلطان لحال بين الصباح وبين الظهور ولجرعه الغصص . وختم القول بالتوجه إلى الصباح ، ما دام عاجزاً ، يفدى الليل بالنفس :

يا صبح ! هاك شبيبتى فافتك بها ودع الدجى لسواده يتمتع
أفقدتنى أنسى بأنجمها التى أصبحت من فقدى لها أتوجع

وتتمثل هذه الفتنة كذلك فى أوصافه الكثيرة للثريا ، وسهيل ، والمجرة ، وبنات نعش ،

---

(١) حلبة الكيت للنواجى : ص ٣٠٧ .
(٢) نثار الأزهار : ص ٢٨ .
(٣) المصدر السابق : ١٤٠ .

والمشترى ، والزهرة وغيرها [١] . وهو فى هذه الأوصاف جميعاً يعنى بتصوير معانى ظهورها وغيابها واتصالها وانفصالها ، على نحو يشعر بالتعلق وينطق بالحب ، مع أخذ من الطريقة الشكلية بنصيب .

ولا يعنى هذا أن النهار بشمسه لا يفتنه ؛ فقد كان تصور معانى النهار فى الليل يزيد فى بهائه ، كما يزيد أنسها :

وليلة مثل يوم شمسها قمر بدت بدو الضحى ظلا وآلاء
يا حسنها ليلة عاد النهار بها أنساً وطيباً وإشراقاً ولألاء !

وقد يودع النهار كارهاً ، ثم يتعزى بالثريا والهلال ، لأنهما أثران من آثار الشمس [٢] .

على أن ابن طباطبا قد أخذ بحظ على ذلك كله ، من الطريقة التقليدية القديمة التى تضيق بالليل والنجوم ، وترى النجوم مقيدة لا تتحرك ؛ فترقبها فى ضجر ، وتترقب فى زوالها كشفاً للغمة . وقد يكون فى هذا مستجيباً لداعى الوراثة الشعرية ، ومقلداً لمن سبقوه فى معانيهم . ومن يدرى ، لعل هذا كان يحدث منه فى لحظات من الضيق والحرمان ، يستثقل فيها الليل بنجومه التى يرعاها ، ويرقبها فى ضيق الساهر الأرق ! [٣] ولا تثريب على الشاعر فى هذا . إنه يصور شعوره وإحساسه ، ويتصل بالطبيعة حسب مزاجه وبمقتضاه . ومتى ثبت شعور الناس وإحساسهم إزاء أى معنى فى الحياة ؟ !

ولعل محمداً كان فى عنايته بالكواكب والنجوم متبعاً طريق أبيه أبى القاسم ؛ فقد أثر عنه فى ذلك شعر وإن كان قليلا . وهذا الشعر يدل على اتصال نفسى بديع بالسماء وأعلامها . يقابل بين حاله وحال الهلال لليلته الأولى فى مقام الضنى والوجد ، ويقابل بين حال الحبيب وحال الهلال مقابلة يتشاكل فيها الأمر ؛ ويصحب الليل كاسف البال ، لكنه لا ينسى تألق أعلامه ، ويحسد الثريا لاجتماع شملها وتفرق شمله بفقد واحده ، ويعجب من هذه التفرقة ، كأنما هى نده [٤] .

---

(١) نثار الأزهار : ص ٦٤ ، ١١٢ - ١٢١ .
(٢) نفس المصدر : ص ١١٢ .
(٣) المصدر السابق : ص ١٢٦ ، ١٢٧ .
(٤) حلبة الكميت : ص ٢٩٤ ، ونثار الأزهار : ص ٢٩٤ ، المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد : ص ٩ ، واليتيمة : ج ١ ص ٦٧٠ .

وإذا رأينا روح الحزن والأسى تتمشى فى هذه الأوصاف التأملية ، فإننا نرى من يعنى بالشكل على طريقة ابن المعتز . ومن هؤلاء ابن النبيه فى نحو قوله المنسوب لابن المعتز :

انظر إلى حسن هلال بدا يذهب من أنواره الحندسا
كمنجل قد صيغ من عسجد يحصد من شهب الدجى نرجسا[١]

ومثله ابن الساعاتى ، وإن لم يعن بالألوان البراقة قدر عناية غيره[٢] .

وهكذا وصف الشعراء المصريون السماء على نحو ما وصف سابقوهم ، وبدت نغمة الجوى والأسى واضحة فى هذا الشعر ، وضوحها فى الأغانى المصرية الحديثة .

٦ – الطبيعة الحية

رأينا فى الخمر حديثاً عن الديك وغيره ، وفى الرياض حديثاً عن الطيور المغردة تملأ الجو طرباً ونشوة . لكن الحيوان قد ظفر كذلك بعنايتهم المستقلة ، فأمعنوا النظر فى محاسنه الخلقية والخلقية ، وجلوها فى ثوب فنى بديع .

وهم فى أوصاف الحيوان قد يعنون بتصوير شكله الجميل مع الإشادة بسرعته ، كقول ابن طباطبا فى صفة فرس .

عجباً لشمس أشرقت فى وجهه لم تمح منه دجى الظلام المطبق
وإذا تَمَطّر فى الرهان رأيته يجرى أمام الريح مثل مطرّق[٣]

ووصفه للهرة أقوى دلالة فى معنى العناية بإبراز المحاسن الشكلية . ومنه قوله :

تتثنى بظلمـــة وضيـــاء إذا تبدّت بالعاج والآبنوس
تتلقى الظلام من مقلتيها بشعاع يحكى شعاع الشموس
ذات دل قصيرة كلما قا مت تهادت طويلة فى الجلوس[٤]

---

(١) نثار الأزهار : ص ٥٠ .
(٢) الديوان : ج ٢ ص ٦٩ ، ١٠٣ ، ١٦٣ .
(٣) نهاية الأرب : ج ١٠ ص ٦١ .
(٤) المصدر السابق : ج ٩ ص ٢٩١ .

وهذه الطريقة التى عنى بها الصنوبرى ، وغيره من شعراء الشام . وكان شعراء الجهاد يتجهون فى هذه الأوصاف إلى إبراز المعانى القوية ، كقول تاج الملوك بن أيوب :

وخيل كأمثال السعالى شوازب تكاد بنا قبل المجال تجول
سوابق تكبو الريح قبل لحاقها لها مرح من تحتنا وصهيل [١]

وقد ينحون منحى القدماء كذلك فى تتبع أوصاف الحيوان الخلقية والخلقية ، وقد يصطنع بعضهم الرجز فى هذا التتبع [٢] . لكن روح الحكاية المجردة تظهر فى هذه الأوصاف أكثر من ظهور أى معنى آخر .

وتبدو الروح المصرية الساخرة فى أوصافهم للبغال والحمير ، وإن لم تمت هذه الأوصاف لشعر الطبيعة بنسب وثيق ، اللهمّ إلا إذا صح أن السخرية تعبر عن بعض معانى التعلق ، وأن الإنسان لا يعنى بموضوع عناية مدح أو ذم أو تهكم إلا إذا كان له حيز فى نفسه . ومثال ذلك قول برهان الدين بن نصر فى وصف بغلة لصاحب الديوان :

لصاحب الديوان برذونة بعيدة العهد من القرط
إذا رأت خيلا على مربط تقول : سبحانك يا معطى !
تمشى إلى خلف إذا ما مشت كأنها تكتب بالقبطى [٣]

ونحوه وصف بهاء الدين زهير لبغلة صديق ، ووصف أبى الحسن الجزار للحمار [٤] .

٧ – صلة الشعراء بوادى النيل

تبينا فيما سبق شيئاً من أثر البيئة فى شعر الطبيعة بمختلف فنونه . لكن لهذا الأثر مظاهر أخرى تبدو فى نواح عدة . فمن شعراء مصر من استولت على فؤاده طبيعتها فهام بها هياماً ، وأخذ يردد محاسنها الطبيعية ، ويتغنى بجمال أرضها وسمائها . وكتب الأدب لا تخلو من إشارات تشرح مدى إقبال الشعراء على الماء والروض يمتعون النفس بهما ، ويصفون هذا المتاع . كانوا يجتمعون فى بساتين الفيوم والإسكندرية ، ورياض القصير وحلوان ، وجنات الجزيرة وشواطئ

(١) نهاية الأرب : ج ١٠ ص ٩١ .
(٢) نهاية الأرب : ج ٩ ص ٣٠٩ – ٣١٠ .
(٣) نهاية الأرب : ج ١٠ ص ٦٨ .
(٤) نفس المصدر : ج ١٠ ص ٩٢ و ٩٩ – ١٠٠ .

دمياط وغيرها من الثغور ، فيصفون ما يتراءى لهم فى الطبيعة ، ويعبرون عن مشاهداتهم ، ويتناشدون أشعارهم .

قال النواجى فى «حلبة الكميت» :

«وقال صاحب بدائع البدائه : أخبرنى القاضى الأعز بن المؤيد قال : اجتمعت مع جماعة من أدباء الإسكندرية فى بستان لبعض أهلها ، فحللنا روضاً تثنت قامات أشجاره ، وتغنت قيان أطياره ، وبين أيدينا بركة ماء كجوسماء ..... فتعاطينا القول فى تشبيهه ، وأطرق كل منا لتحريك خاطره وتنبيهه ، ثم أظهرنا ما حررنا ..» . ويورد طرفاً من الشعر فى هذه المناسبة .

كما قال :

«وحكى الأديب أبو الربيع سليمان بن إسماعيل المنبجى قال : جمعنى مجلس أنس مع الأديب أبى إسحاق إبراهيم بن أبى الثناء المنبجى بالفيوم ، فى بستان فيه بركة وفوارة ماء ، وقد نثرنا على الماء ياسميناً ، فتجاذبنا أهداب وصفها ..» . ويورد طرفاً من أشعار هذه المناسبة كذلك [١] .

وكثيراً ما تغنى محمد بن عاصم الموفق بالجيزة ، والمقس ، ودير القصير ، وحلوان ، وشاطئ البركتين ، وطموية القرية المصرية [٢] .

ومن قوله الدال على الفتنة بدير القصير فى قصيدة طويلة :

غردت بينها الطيور فطارت بفؤاد المتيّم المستطـــــار
كم خلعت العذار فيه ولم أرع مشيباً بمفرق وعذارى
فسقى الله أرض حلوان فالنخـ ـل فدير القصير صوب العشار !

والأشعار فى الفسطاط وجزيرة الروضة مأثورة [٣] . ومن أطرفها قول على بن موسى بن سعيد :

انظر إلى سور الجزيرة فى الدجى والبدر يلثم منه ثغراً أشنبا
تتضاحك الأنوار فى جنباته فتريك فوق النيل أمراً معجبا

---

(١) حلبة الكميت : ص ٢٥٨- ٢٦٠ .
(٢) اليتيمة : ج ١ ص ٣٨١- ٣٨٤ .
(٣) نفح الطيب : ج ١ ص ٢٠- ٢٤ ، ٤٨٤- ٤٩٠ .

بينا تراه مفضّضاً فى جانب أبصرت منه فى سواه مذهّبا
لله مرأى ما رآه ناظرى إلا خلعت له المقام تطربا !

ونحوه قول ابن مماتى فى شعر له :

جزيرة مصر لاعدتك مسرة ولازالت اللذات فيك اتصالها
مغانيك فوق النيل أضحت هوادجاً ومختلفات الموج فيك حبالها

فهذه الأخبار والأشعار [١] تدل على ما سبقت الإشارة إليه من الفتنة بطبيعة مصر والهيام بجمالها . وهذه الفتنة قد تبلغ ببعض الشعراء أقصى مدى ، فيفضل الوطن وكل ما اتصل به من معان وأحداث على غيره من الأوطان ، وإن كان موطن الرسول ومنزل الوحى . ومثل هذا البهاء زهير ؛ فهو يتعلق بمصر حتى لا يكاد يتصور كيف يرحل عنها ويقول من قصيدة :

أأرحل من مصر وطيب نعيمها وأى مكان بعدها لى شائق
وأترك أوطاناً ثراها لناشق هو الطيب لا ما ضمنته المفارق
وكيف وقد أضحت من الحسن جنة زرابيها مبثوثة والنمارق [٢]

ويبدى أسفه الشديد لفراق مصر فى قصيدته التى جاء فى أولها :

أسفى على زمن التلاقى والعيش متسع النطـــاق
ورداء عز كنت أر فل فى حواشيه الرقاق
أيـــام مصر لـــيتهـــا فديت بأيامى البواق [٣]

وفى مقام الحديث عن مصر وأبطالها الفاتحين ، ينال من فكرة العروبة وأبطال العرب فى قصيدته التى يمدح بها صلاح الدين يوسف بن أيوب :

لكم من الود الذى ليس يبرح ولى فيكم الشوق الشديد المبرح [٤]

فقد تفكه بحديث ذى الرمة وانتجاع صيدحه لبلال بن أبى بردة ، ودعا إلى نبذ التمثل بكعب بن أمامة الأيادى فى السماح وبحاتم فى الجود ، وفضل موقف المصريين فى الدفاع عن دمياط على موقف الصحابة فى بدر وحنين .

(١) نفح الطيب : ج ١ ص ٢١ وما بعدها .
(٢) الديوان : ص ١٣٩ – ١٤٠ .
(٣) المصدر السابق : ص ١٤٤ .
(٤) نفس المصدر : من ٤١ – ٤٧ .

وهذه لا ريب نزعة واضحة الدلالة فى التجديد ، والاعتزاز بالحاضر فى إشراقه ، وتفضيله على القديم بكل ما اتصل به من أحداث وأحاديث بطولة .

* * *

لكن صلة الشعر بمصر تظهر على نحو أتم فى حديث النيل أبى مصر ، ومانحها الخصب والثراء . وقد كان النيل مادة غزيرة لشعراء مصر ومن حلوا بها . ولم تكن فتنة هؤلاء بأقل من فتنة أولئك ، بل لعل الأجانب فاقوا أهل مصر فى الهيام بالنيل والدهش لمرآه وبهائه . وهذا شأن الأجنبى دائماً يبهره البعيد عنه غير المألوف فى حياته . أما المقيم بين العجائب فإنه لا يلبث أن يراها غير جديرة بإثارة انتباهه . وأوصاف ابن جابر الأندلسى ، وابن عبدون ، وابن الصاحب ، وابن سعيد أمثلة لهذا .

وكيفما كان الأمر ، فقد ظفر النيل بعناية الشعر المصرى ؛ صور الشعراء مرآه فى الصباح ووسط النهار ، وعند الغروب ؛ وصوروا شواطئه والمعاهد المتصلة به ، والسفن السابحة فيه ، والبدر والكواكب والشموع المترائية فى مائه ، والنواعير القائمة بجواره ، والأشجار والرياض الحافة من حوله ؛ ورددوا حديثه فى أحاديث الطبيعة التى مرت ، كما وصفوه لذاته بأوصاف مستقلة ، وأسبغوا عليه أكرم الصفات وأشرف المحامد [1] .

والقاضى الفاضل ، حين لا يرتوى بغير ماء النيل ، يعبر عن صلة الشعراء بهذا الوادى :

بالله قل للنيل عنى إننى لم أشف من ماء الفرات غليلا
وسل الفؤاد فإنه لى شاهد إن كان طرفى بالبكاء بخيلا[2]

ويعبر عنها كذلك البهاء زهير حين يتحدث عن الحياة فى مصر بمثل قوله :

كل عيش غير ذاك الـ ـعيش فى العالم زور
منزل ليس على الأر ض لـه عنـدى نظير[3]

أما ابن الساعاتى فقد وصف النيل أوصافاً مختلفة تعبر عن الهيام به أتم تعبير . تعلقت به نفسه وشُدّ إليه بصره ؛ فوصف مظهره فى النسيم وفى العواصف تعبث بالزوارق ، وفى الفيضان ؛

---

(١) اليتيمة : ج ١ ص ٣٨٤ ، ونفح الطيب : ج ١ ص ٢٠ – ٢٥ ، ٤٨٤ – ٤٩٠ ، حلبة الكيت : ص ١٧ و٢٤٦ و٢٤٩ و٢٥٣ و٢٥٤ و٢٥٦ و٢٦٠ – ٢٦٥ و٣١٢ و٣٢٦ .

(٢) نفح الطيب : ج ١ ص ٢١ .

(٣) ديوان البهاء : ص ٨٧ .

وركب النيل وانطلق لسانه بالشعر يصف مركبه ؛ وتَغَنّى بكرمه ، وشبّه ممدوحيه به (١) .

وقد رأينا فيما سبق الهتاف بالطبيعة المصرية فى جو الحب والخمر ، وأحسسنا شيئاً من الطرافة فى هذا الهتاف . وقد نحس بهذه الطرافة أيضاً فى حديث النيل . ومثل ذلك قصيدة المقر الفخرى بن مكانس فى وصف شجرة سرح على شاطئ النيل وأولها :

يا سرحة الشاطئ المنساب كوثره على اليواقيت فى أشكال حصباء !

فبهذا المطلع الفاتن بدأ قصيدته الرائعة ، فدعا للشجرة بالغيث يجودها لقاء ما يتمتع بظلها الوارف ونورها البسام ، ولزهرها تدوم له النضارة والحياة لقاء ما تَطِبُّ للرمضاء وتشفى من القيظ ، ثم ربط بين الرياض وبين النيل والغيث وأثر الماء فى طبعها الرطب الندى ، وأورد بعض مفاتنها الجوية والسمعية والبصرية ، ثم قال :

قديمة العهد هزتها الصبا فصبت فهى العجوز تهادى هدى مرهاء
وصوت بلبلها الراقى ذرى غصن فى حلة من دمقس الريح دكناء
كقرع ناقوس ديرى على شرف مسبح فى ظلام الليل دَعّاء

فهذه الشجرة فاتنة ، وتقدمها فى السن يزيدها حسناً على حسن . والشاعر مولع بها ؛ لكنها لا تأبه لولهه ، وإنما تتأبى عليه تأبياً :

خلية حين أحنيت الضلوع على نار لشجوى بها لا حب لمياء
تهكمت بى فلم تحنى أضالعها على الهواء وأحنتها على الماء

وهذا التأبى لا ينال من محاسنها عند الشاعر ، وإنما يزيده تقديراً لها وافتتاناً بها ؛ فهى بديعة الحسن تهيأ لها هذا الجناس البديع بين الأفنان والأفياء ، وحديث الدهر عما تنشره من أرج فى الأرجاء ، تنقط بالأبيض والأصفر من نوارها الموجَ حين يصفق طرباً منها ، فيشارك الشاعرُ الموجَ فى طربه ، ويشعر بكل الغنى فى ظلال هذه الفاتنة بألوانها الذهبية ، ثم يقول فى هيام :

كأنها من جنان الخلد قد كملت حسناً وحسبك من خضراء لفّاء

وكما تفتنه الشجرة بحسنها الذاتى تفتنه بمجاورتها النهر ، وللنهر كذلك معانيه الجميلة :

مالت على النهر إذجاش الخريربه كأنها أذن مالت لإصغاء
كأنما النهر مرآة وقد علقت عليه تدهش فى حسن ولألاء

---

(١) ديوان ابن الساعاتى : ج ١ ص ٤٨ و٥٢ و١٢٣ و١٦٧ و١٦٨ و١٦٩ و٢١٤ و٢٨٩ وج ٢ ص ٩ و٣٤ و٣٧ و٢١٤ و٤٠٠ .

ذو شاطئ راق غب القطر فهو على نهر الأبلة يزرى . أى إزراء

ثم يذكر فتنة أخرى تتصل بالشجرة كذلك ؛ وهى فتنة الحمامات تشدو على أغصانها :

من كل ورقاء فى الأفنان صادحة بين الحدائق فى فيحاء زهراء

ويختتم الحديث بالدعوة إلى المتاع بهذه الألوان ، ووصف تبكيره وأصحابه إليها ، وما تنطوى عليه أفئدتهم من إخلاص ، وما يتداعبون به من الشعر[1] .

وهكذا تتبع السرحة تتبعاً ، وصور محاسنها وأضفى عليها من المعانى ما أبدعه الخيال ، وذكر ما يتصل بها من مفاتن الطبيعة فى الماء والطير . وهذا اللون من التتبع طريف فى روحه ، ولوحى النيل أثر بارز فيه .

٨ – المعانى القديمة فى الطبيعة

على أن هذه العناية التى ظفر بها النيل ليست عناية مبتكرة كل الابتكار ، وكثير من تفاصيلها قد سبقت به البيئات الأخرى فى الشام والأندلس ، ولعل نهر النيل لم يظفر من جمال التصوير بما ظفرت به أنهار الشام ، ولعل الفتنة بطبيعة مصر لم تظهر فى الشعر ظهور الفتنة بطبيعة الأندلس ! .

وكيفما كان الأمر فشعراء مصر لم يتحرروا ، على ما سبق ، من المعانى القديمة فى شعر الطبيعة ؛ وإنما ظلت صلتهم بالطبيعة البدوية وثيقة ، وظل هتافهم بشبه الجزيرة متصلا . لقد وقفوا بالأطلال ، وبكوا الدمن والربوع الخوالى ، واستجادوا الغيث على منازل الحبيب المقفرة ، وركبوا المطايا إلى الممدوح ، وربطوا بين الطبيعة والمدح على نحو ما ربط سابقوهم .

ولم تكن هذه النزعة مقصورة على شعراء العصور العربية الأولى فى مصر ، وإنما كانت تبرز فى شعراء العصور التالية . وابن الساعاتى من شعراء النصف الثانى للقرن السادس ، وابن الفارض ، وابن مطروح من شعراء القرن السابع – أوضح الأمثلة لهذا .

فابن الساعاتى يذكر الأطلال والوقوف بها فى كثير من شعره ، ويبكى بين الربوع ويصطنع الرجز القديم فى حديث الطبيعة مع تأثر بمعانى المحدثين وبخاصة أبو تمام ، ويذكر حديث الظعن التقليدى ، ويقطع التنائف والبيد على ظهور الضوامر إلى الممدوح ، ويصف الراحلة وسيرها .

---

(١) حلبة الكميت : ص ٣١٢– ٣١٣ .

وهو فى ذلك كله يصطنع معانى القدماء ومن سبقوه من المحدثين فى أسلوب العصر وبديعه ، خاضعاً لأثر القديم وسلطان الجديد بأقدار تتفاوت فى شعره (١) . وكثيراً ما هتف بنجد والحجاز ، وردد أسماء المعاهد والبقاع العربية مثل الأجرع ، وإضم ، وتهامة ، وتيماء ، والجرعاء ، والجزع ، والحجون ، وحزوى ، والحطيم ، وديار بكر ، ورضوى ، وزرود ، والنقا ، ويبرين ، ويثرب ، ويذبل ، ويلملم (٢) .

وإذا كان ابن الساعاتى فارسى الأصل عاش فى الشام ، واتصل بالجزيرة كما اتصل بمصر ، فابن الفارض يصنع كذلك صنيع ابن الساعاتى فى دائرة شعره المأثور الضيقة : يثير النسيم هواه لنجد والحجاز ، ويصف الوجناء وركوبها ، ويقف بالأطلال ، ويذوب شوقاً إلى الحجاز ومعاهده ، ويردد أسماء الديار العربية . ولعل له من حال التجرد والضرب فى وديان الحجاز ما يفسر هذه الحال .

وأبو الحسن يحيى بن مطروح يرحل كذلك إلى ممدوحه على الناقة ، ويسخر الطبيعة للمدح ؛ فالبحر يغار من الممدوح ، وخصب مصر من أجله ، والكواكب فى خدمته (٣) .

وهكذا أخذت البيئة المصرية بحظ من المعانى الحديثة فى شعر الطبيعة ، وظهر أثر البيئة فى هذا الشعر ، لكنها لم تتحرر من القديم فى هذا الفن ، بل رددت معانيه ، ونسجت على منواله ، مع الأخذ بالأساليب الجديدة فى البيان . ولم يصل شعر الطبيعة المصرى إلى ما وصل إليه شعر الطبيعة الأندلسى ؛ من حيث الروعة والفتنة ، ومدى التعبير الخاص عن البيئة .

فما سر هذه الحال ؟

---

(١) الديوان : ج ١ ص ٥٥ و١٤٩ و٢٠٣ و٢٠٥ ، ج ٢ ص ٥ و١٦ و٥٤ و٩٤ و١٠٤ و١٠٩ و١٢٠ و١٢٤ و١٢٨ و١٣٨ و ٢٣٥ و٣٢٢ و٣٢٤ و٣٨٨ .

(٢) الديوان : ج ١ ص ٣٨٩ ، ١ - ٢٦٤ ، ١ - ١٩٢ ، ٢ - ٩٥ ، ١ - ٥٥ ، ٢ - ٤٠٧ ، ٢ - ١٣ ، ١ - ١٧٨ ، ٢ - ٢٣٢ ، ١ - ٢١٩ ، ١٦٣ ، ٤٩ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٢٥٩ ، ٧٤ ، ٢ - ٩٢ ، ١ - ٤٨ ، ٢ - ٣٠٠ ، ٢ - ٥٧٠ ، ١١٠ ، ٢ - ٤١٠ ، ٢٤٩ .

(٣) ديوان ابن مطروح : ص ١٨٠ و١٨٦ - ١٨٧ و١٩٦ و١٩٨ و٢٠٢ و٢٠٧ .

٩ – تفسير هذه الحال

حين فتح العرب مصر لم يفتحوا بلداً غريباً عنهم ، وإنما فتحوا قطراً متصلا بهم ، من زمن بعيد ، اتصال جوار وتبادل منفعة ورحيل . وقد تحدث القرآن الكريم عن مصر ومائها وخصبها فى مواضع عدة ، كما وردذكر النيل فى الشعر الجاهلى . وطبيعة البلاد المصرية تجمع إلى الخصب الممثل فى وادى النيل الجدبَ الممثل فى الصحراوات المحيطة به ، والتى رحل إليها العرب منذ القدم ، فيما رحلوا إليه من صحراوات بشمال أفريقية . وخصب النيل قد أقاموا بين أمثاله فى العراق وفارس والشام قبل الفتح العربى لمصر ؛ لهذا لم يبهر العرب حين دخلوا مصر كل البهر ، ولم يجدوا عالماً جديداً على علمهم كل الجدة . وليس الحال كذلك فى الأندلس .

وطبيعة البلاد المصرية لم تظفر من التنويع بما يهيئ تمام الشعور بتغير أحوالها ؛ فالشتاء غير قارس ، والصيف مقبول ، والربيع والخريف معتدلان اعتدالا لا يثير النفوسَ ، ولا يحركها قدر ما يثير ويحرك التطرفُ .

وكانت كثرة الشعراء المصريين عرب الأصل ، كما كانت القلة مستعر بين معنى وروحاً . ولا نكاد نجد شاعراً مصريًّا صريحاً ؛ قد تجرد من الماضى العربى والتعلق به ، والأخذ بالأسوة التامة فى شعرائه .

واللغة ذات أثر كبير فى رعاية الماضى الأدبى والتعلق به . وبخاصة إذا لم تعمل المؤثرات الأجنبية عملها فى الإنتاج الفكرى ، وكانت الحال كما كانت فى الأدب العربى ؛ من ملازمة الماضى ، والاعتزاز بهذه الملازمة ، وعدم الإفادة من التراث الثقافى للبلاد المفتوحة .

وكان للدين نفس الأثر فى التعلق بالجزيرة منزل الوحى وبأدبها . وهذا التعلق قد جعل بعض الشعراء يعيشون بأرواحهم فى الحجاز وبأجسامهم فى مصر . وكان ولاة مصر الأولون من عرب الجزيرة الخلص ، كما كان الفاطميون والأيوبيون يتشبثون بالمعانى العربية ، ويربطون أنفسهم بأنساب عربية . ولم يكن هذا الربط غريباً من الفاطميين قدر غرابته من الأيوبيين الأكراد الذين انتسبوا إلى عدنان ، وشاعت فى أيامهم سلاسل النسب العربية وبخاصة الهاشمية .

وتعلم اللغة العربية بالنسبة للمصريين الراغبين فى الوظائف العامة ، جعلهم يرجعون إلى

الماضى البدوى وما يتصل به ، رغبة فى الظفر بأوفر نصيب من اللسان العربى فى أنقى منابعه وأقوى مصادره .

وكانت أحداث التاريخ الجسام والحروب المتصلة صارفة للعرب وللمصريين المستعربين عن معانى الإستقرار والاندماج فى الطبيعة .

والمصرى ، بحكم عمله الزراعى ، رجل عملى صبور يبذر البذر ، وينتظر أشهراً فى عمل دائب قبل أن يجنى الثمر . وفى هذا مباعدة بين الإنسان وبين المعانى الشعرية ، أو مساعدة على هذه المباعدة إذا توافرت لها أسباب أخرى .

كما أن نزعة الزهد تتغلب عليه ، ولا يتهيأ له من المرح حظ مذكور ، وإن تهيأ له من الفكاهة نصيب موفور . والمرح من العوامل الأساسية فى الاندماج بالبيئة ، وازدهار شعر الطبيعة .

والمصريون ، بحكم ماضيهم الأدبى ، تغلب عليهم النزعة الدينية فى الأدب والفن من عهد الفراعين . وهذه النزعة هى التى جعلتهم يتعلقون بالجزيرة ، والحجاز منها خاصة ، ولا يفنون فى بيئتهم الخصبة المزدهرة .

هذه الأسباب ونحوها هى التى جعلت الشعر المصرى يسير بعامة فى الطريق الذى سلكه الشعر العربى فى البيئات الأخرى ، ولم تهيئ للفتنة الجامحة بالنيل ووديه ، والابتكار فى التعبير عن هذه الفتنة . لكنها لم تمنع التغنى بوادى النيل ، والاستجابة لوحى البيئة وسلطانها القوى .